جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

الظِّلُّ
فِي ضَوْءِ النَّظْمِ القُرْآنِي

إعداد
الدكتور/ إبراهيم حسن أحمد
أستاذ البلاغة والنقد المساعد فى الكلية

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى سجد له من فى السموات والأرض طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغدو والآصال، والصلاة والسلام على من هدى الله به الأمة من الضَّلال، اللهم صَلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد نجوم السماء وحبات الرمال، صلاة وسلامًا دائمين متلازمين إلى يوم المآل.

أما بعد

فإن الله — عز وجل — أودع من أسرار الإعجاز فى كتابه ما لا تستوعبه العقول، ولا تستنفده كثرة الدراسات، ولا يَبْلى جديده كرُّ الليالى والسنين فهو ينبوع الفصاحة، ومَعِينُ البلاغة، والنبعُ الذى يَسْتقِى منه الفصحاءُ والبلغاءُ، فلا يغيضُ ماؤُه، ولا تنقضى عجائبه، ولا يَخْلَق على كثرة الردِّ.

ولقد كان القرآن ولا يزال منذ أن نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين، بلسان عربىٍّ مبين، محل عناية علماء هذه الأمة، فقد بذلوا الجهد تلو الجهد فى تدبُّر ألفاظه، واستخراج معانيه، واستكناه أسراره، وتَلمُّسِ مقاصدِه ومراميه، وهذا من منطلق الواجب والنصيحة لكتاب الله — تعالى — والتى تقتضى أن تُصرَف العنايةُ التَّامَّةُ، والجهد المخلصُ إلى إتقان فقه هذا البيان العلىِّ، والمثابرة على الغوص فى أعماق ألفاظه وتراكيبه ومعانيه.

وما من ريب فى أن تتبع الكلمة فى أساليب القرآن الكريم، والوقوف على استعمالاتها، وتأمل السياق والنظم الذى نُسجت فيه، مما يكشف عن كثير من الأسرار والمزايا، ويُجلِّى جانبًا من جوانب الإعجاز لكتاب ربنا العزيز...

وهذا البحث (الظِّلُّ فى ضُوءِ النَّظْمِ القرآنى) ينهض بدراسة كلمة (الظِّلِّ) ويتتبع استعمالاتها فى القرآن الكريم؛ ليبرز ما وراء تلك الاستعمالات، ويُجلِّى ما يكمن وراء النظم القرآنى الذى سُلكت فيه، من معان جليلة، ومزايا لطيفة، وأسرار دقيقة.

وغنىٌّ عن البيان أن استيعاب الآيات التى ذُكر فيها الظِّلُّ، ومحاولة كشف أسرارها البلاغية، وتَدبُّر ألفاظها، واستخراج معانيها، وتلمس مقاصدها ومراميها، وبيان معنى الظِّل فى كل آية، وارتباطه بالسياق الذى ورد فيه، وتجلية فروق النظم فى صياغة لفظ (الظِّلِّ)، مما يُعين على فهم البيان القرآنى، والعمل بمقتضى هذا الفهم.

ومنهجى فى هذه الدراسة يقوم على حصر الآيات التى ورد فيها الظِّلُّ، ثم تصنيف الظِّلِّ بحسب زمان وقوعه باعتبار الدنيا والآخرة، ثم تصنيف الظِّلِّ الدنيوى باعتباره نِعْمةً، أو نِقْمةً، وكذلك تصنيف الظِّلِّ الأخروىّ باعتبار مكانه ومَنْ يتظلَّل به، ثم النظر فى كل صنف بحسب صياغته، ومقامه الذى

اقتضاه، والغرض الذى أدَّاه، ومدى تناسب صيغته مع المقام الذى سيق فيه، والسياق الذى اكتنفه، ثم تجلية عناصر النظم وبيان دورها فى بيان مفهوم الظِّلِّ، أو تحديد صفاته.

هذا: وقد جاءت هذه الدراسة فى مقدمة وتمهيد، وفصلين وخاتمة، وثبت بأهم المصادر والمراجع، وفهرست.

المقدمة: وفيها بيان بأهمية الموضوع، وسبب اختياره.

التمهيد: وفيه تعريف بالظل، وأهميته.

الفصل الأول: النَّظْمُ القرآنى لِظِلِّ الدُّنْيَا، ويشمل أولا: خصائص ظِلِّ النِّعمة والترغيب، ثانيا: خصائص ظِلِّ الرهبة والتعذيب.

الفصل الثانى: النَّظْمُ القرآنى لِظِلِّ الآخرة، ويشمل، أولًا: خصائص ظِلِّ الجنة، ثانيًا: خصائص ظِلِّ النار.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

وبعد: فهذا الجهد قصدت به وجه الله – تعالى – والنصيحة لكتابه العظيم راجيًا منه – تعالى – القبول والسداد، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

د/ إبراهيم حسن أحمد

تمهيد

مَفْهُومُ الظِّلِّ وأَهَمِّيَّتُه

أولًا: مفهوم الظِّلِّ.

جاء فى معاجم اللغة أن (الظِّلَّ) هو ضَوْءُ شُعَاعِ الشَّمسِ دُونَ الشُّعَاعِ، والظِّلُّ: نَقِيضُ الضَّحِّ – والضَّحُّ: الشَّمْسُ – يقول الشاعر:

لَقَدْ سِرْتُ شَرْقِيَّ البِلَادِ وَغَرْبِهَا *** وَقَدْ ضَرَبَتْنِي شَمْسُهَا وظُلُولُهَا[1]

وكل موضع تكون فيه الشَّمسُ ثم تزولُ عنه فهو ظِلٌّ وفَيْءٌ، وقيل: الفيْءُ بالعَشِيِّ، والظِّلُّ بالغَدَاة، وعلى هذا فالفَيْءُ لا يُدْعَى فَيْئًا إلا بعد الزَّوَالِ إذ ناءت الشَّمسُ، أى: رَجَعَت إلى الجَانبِ الغَرْبِيِّ، فما فاءت منه الشمس وبَقِيَ ظِلًّا فهو فَيْءٌ، والفيْءُ: شَرْقِيٌّ، والظِّلُّ غَرْبِيٌّ، وإنَّمَا يُدْعَى الظِّلُّ ظِلًّا من أوَّلِ النهار إلى الزوال، ثُمَّ يُدْعَى فَيْئًا بعد الزوال إلى الليل.

والظِّلُّ: كلُّ ما لم تطلع عليه الشمس، وظِلُّ الليل: سَوَادُهُ، يقال أَتانا في ظِلِّ الليل، وأظَلَّ يَوْمُنَا: إذا كان ذا سَحَابٍ، أو غَيْرِه، وصار ذا ظِلٍّ فهو مُظِلٌّ، وجمع الظِّلِّ: أظْلَالٌ، وظِلَالٌ، وظُلُولٌ، والظِّلَالُ: مَا أظَلَّكَ من سحَابٍ، ونَحْوِهِ، وأَظَلَّتْنِي الشَّجَرَةُ، وغيرُهَا، واسْتَظَلَّ بالشَّجَرَةِ: اسْتَذْرَى بِهَا.

ويُطْلَقُ الظِّلُّ فى اللغة: على السِّتْرِ، يُقالُ: لا أزَالَ الله عنَّا ظِلَّ فلان، أى: سَتْرَهُ لنا، وهو في ظِلِّهِ، أى: في كَنَفِهِ ويُقالُ: هذا ظِلُّ الشجرة، أى: سَتْرُهَا وتَغْطِيَتُهَا، واسْتَظَلَّ الرجُلُ: اكْتَنَّ بالظِّلِّ، واسْتَظَلَّ بالظِّلِّ: مال إليه وقَعَدَ فِيهِ، وأظَلَّنِي الشيءُ: غَشِيَنِي، والظُّلَّةُ: الغاشِيَةُ، والظُّلَّةُ، شيء كالصُّفَّةِ يُسْتَتَرُ به من الحَرِّ والبَرْدِ، جَمْعُهُ: ظُلَلٌ وظِلَالٌ، والظِّلَالَةُ: السَّحَابَةُ تَرَاهَا وحْدَهَا، وتَرَى ظِلَّهَا على الأرضِ، والظِّلال: ظِلَالُ الجَنَّةِ، ويُقَالُ: ظِلُّ الجَنَّةِ، ولا يُقَالُ: فَيْؤُهَا؛ لأن الشمس لا تُعَاقِبُ ظِلَّهَا فَيَكُون هناك فَيْءٌ، إنَّمَا هِى أَبَدًا ظِلٌّ، وقد جعل بعض الشعراء للجنَّةِ فَيْئًا غير أنَّهُ قَيَّدَهُ بالظِّلِّ، فقال:

فَسَلَامُ اللَّهِ يَغْدُو عَلَيْهِمْ *** وَفُيُوءُ الفِرْدَوْسِ ذَاتِ الظِّلَالِ[2]

والمِظَلَّةُ: البَيْتُ الكَبِيرُ من الشَّعَرِ، وعَرْشٌ مُظَلَّلٌ: من الظِّلِّ، وعَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ: غَيْمٌ تَحْتَهُ سُمُومٌ، أو سحابةٌ أظَلَّتْهُم فاجْتَمَعوا تحتَها مُسْتَجيرينَ بها مما نالَهم من الحَرِ فأطْبَقَتْ عليهمْ، وأَظَلَّكَ فُلَانٌ: إذَا دَنَا

---

(١) البيت لكثير عزة، وهو فى ديوانه صـ١٧٣، شرح/ قدرى مايو، الطبعة الأولى١٤١٦هـ ١٩٩٥م، دار الجيل، بيروت.

(٢) البيت للنابغة الجعدى، وهو فى ديوانه صـ١٤٢، ت/ د. واضح الصمد، الطبعة الأولى١٩٩٨م، دار صادر، بيروت.

مِنْكَ كأَنَّهُ أَلْقَى عَلَيْكَ ظِلَّهُ، ويُقَالُ: أَظَلَّكَ أَمْرٌ، وَأَظَلَّكَ شَهْرُ كَذَا، أىْ: دَنَا مِنْكَ، والعرب تقول: لَيْسَ شىءٌ أَظَلُّ مِنْ حَجَرٍ، ولَا أَدْفَأ مِنْ شَجَرٍ، ولَا أَشَدَّ سَوَادًا مِنْ ظِلٍّ[1].

ثانيًا: أهميَّة الظِّلِّ.

الظِّلُّ نعمة من نعم الله – تعالى – على خلقه، فبه يَتَّقُون وهج الشمس وحرَّها، وفيه يقومون بأعمالهم النهارية دون أن يعوقهم لهيبُ الشمس وحرُّها، وقد اشتق العرب من (الظِّلِّ) الفعل (ظَلَّ) للدلالة على كل فعل يكون بالنهار، "يُقَالُ: ظَلِلْتُ أَعْمَلُ كَذَا بالكسر ظُلُولًا: إذا عملته بالنهار دون الليل، ويُقَال: ظَلَّ فُلَانٌ نَهَارُهُ صائمًا، ولا تقول العرب: ظَلَّ يَظَلُّ إلا لِكُلِّ عَمَلٍ بِالنَّهَارِ، كَمَا لَا يَقُوْلُونَ: بَاتَ يَبِيتُ إلَّا بِاللَّيْلِ"[2].ولشدةِّ احتياج الناس للظِّلِّ لم يكتفوا بالظِّلال الطبيعية كظِلال الجبال والأشجار ونحوها، بل ابتكروا أشياء صناعية توفِّر لهم ما يحتاجون إليه من الظِّلِّ، وأسموها باسم مشتق من الظِّلِّ كذلك، فأطلقوا عليها اسم المِظَلَّة، وهى البيت الكبير من الشَّعَرِ، والمَظَلَّة، وهى بيوت الأخبية من الثياب، وتطلق على البيت العظيم.[3]

وقد عرف الناس أهمية الظِّلِّ وخصائصه منذ القدم، فاستخدموه فى تقسيم النهار إلى ساعات متساوية، ومع ظهور الإسلام استخدم المسلمون الأوائل الظِّلَّ فى تحديد مواقيت الصلاة.

ولعظم شعور الإنسان بالراحة فى الظِّلِّ استخدم الإظلال فى كل شىء يشعر فيه بالراحة والطمأنينة، يقال: فلان فى ظِلِّ فلان، أى: فى ذَرَاهُ وكَنَفِهِ، وفلان يعيش فى ظِلِّ فلان، أى: فى كَنَفِهِ يتمتع بالعِزِّ والمَنَعَةِ، ويقال: أَظَلَّنَا شهر رمضان، أى: أقبل علينا ودنا منَّا، كأنه ألقى علينا ظِلَّهُ....[4]

وإذا كان الظِّلُّ نعمة من نعم الدنيا، فهو كذلك لون من ألوان النعيم للطائعين فى الآخرة، يضارع الأنهار الجارية، والقطوف الدانية، والولدان المخلدين، والكواعب الأتراب، بل إن بعض آيات

---

(١) ينظر: مادة (ظ . ل . ل) فى المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، ت/ د. عبد الحميد هنداوى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، جـ١٠، صـ٦، والصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهرى، ت/ أحمد عبد الغفار عطار، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت، والقاموس المحيط للفيروزابادى، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م، دار إحياء التراث العربى، بيروت، جـ٦، صـ١٦، ولسان العرب لابن منظور، ت/ عبد الله على الكبير، طبعة دار المعارف بالقاهرة، جـ٤، ٢٧٥٣ - ٢٧٥٦وينظر: الزاهر فى معانى كلمات الناس لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى، ت/ د. حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، مؤسسة الرسالة، بيروت، جـ٢،صـ٥٦، ٥٧.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (ظ . ل . ل) جـ ٤، صـ٢٧٥٣.

(٣)ينظر: لسان العرب، مادة (ظ . ل . ل) جـ ٤، صـ٢٧٥٣، وما بعدها.

(٤) ينظر: لسان العرب، مادة (ظ . ل . ل) جـ ٤، صـ٢٧٥٣، وما بعدها.

القرآن الكريم تُقدِّم الظِّلالَ فى الذكر على غيرها من صنوف نعيم الجنة، كقوله — تعالى -: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ، هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ، لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ، سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ)[1]، وقوله — تعالى -: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ)[2]، فالظِّلُّ نعمة من نعم الله — عز وجل — على عباده فى الدنيا والآخرة، فسبحان الخالق المنعم المتفضل...

(١) يس: ٥٥ — ٥٨.

(٢) المرسلات: ٤١، ٤٢.

الفصل الأول

النظم القرآنى لظِلِّ الدُّنيا

جاء حديث القرآن الكريم عن الظِّلِّ الدنيوى متنوِّعًا ما بين النِّعمَة والترغيب، والنِّقْمة والترهيب، فيكثر وُرُودُهُ نعمة يُذَكِّرُ الله - تعالى - بها عباده، ويُرغِّبهم فى النَّظَر والتأمل فيما يتصف به الظِّلُّ، فتارة نرى ظِلَّ الغَمَام يقى بنى إسرائيل من وهج الشمس، وتارة نرى الظِّلَّ ساجدًا لله - تبارك وتعالى- وتارة نرى الظِّلال تتفيأ عن اليمين والشمائل سُجَّدًا لله - تعالى -، وتارة نرى ظِلالًا تقى الحرَّ والبأس، وتارة نرى الظِّلَّ يُمَدُّ ويُقبضُ، وتارة نرى الظِّلَّ ملاذًا يأوى إليه الأنبياء، وتارة نرى الظِّلَّ فى مقابلة الحَرُور؛ تتضح به النعمة، وتتأكد به المِنَّة.

ويقل وُرُودُ الظِّلِّ نقْمَة يُرْهِّب الله - تعالى - بها المعاندين، أو يُعذِّبُ بها المجرمين، أو يُخيفُ بها المشركين، فتارة نرى الظِّلَّ مُشبَّهًا به لجبل نُتِق فوق الرءوس، وتارة نرى الظِّلَّ عذابًا يُعرفُ بعذاب يوم الظُّلَّة، وتارة نراه مُشبَّهًا به لموج يَغْشَى الفُلْكَ وراكبيها...، وربَّما كان السرُّ وراء الإكثار من مجىء الظِّلِّ فى مقام النِّعمَة، والإقلال من مجيئه فى مقام النِّقمَة أن الله - تعالى - يبسط فى الدعوة إلى توحيده الدلائل والآيات، ويمدُّ لعباده ويُمهِلُهم لعلهم يهتدون، فإذا كفر بعضُهم وعاند فأخْذُهُ أليم شديد سريع، وإليك أيها القارئ الكريم تفصيل ما أجملناه.

أولًا: خصائصُ ظِلِّ النِّعْمَة والترغيب.

- تَظْليلُ الغمام على بنى إسرائيل.

* قال - تعالى - مخاطبًا بنى إسرائيل: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[1].

وقال - سبحانه - مُخبرًا عنهم: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[2].

ففى هاتين الآيتين الكريمتين يُذكِّرُ الله - عزَّ وجلَّ - "بِنِعْمَتَيْنِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي مَنَّ بِهَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَكَفَرُوا بِهَا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ مَا كَانَ بِهِ الْكُفْرَانُ، بَلْ طَوَاهُ وَأَشَارَ بِمَا خَتَمَ بِهِ الْآيَةَ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَظْلِمُوا اللهَ - تَعَالَى - بِذَلِكَ الذَّنْبِ الْمَطْوِيِّ وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَهَذَا أُسْلُوبٌ آخَرُ مِنْ أَسَالِيبِ الْبَيَانِ

---

(١) البقرة: ٥٧.

(٢) الأعراف: ١٦٠.

فِي التَّذْكِيرِ، وَضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْإِيجَازِ الَّتِي هِيَ أَقْوَى دَعَائِمِ الْإِعْجَازِ"[1]. أَمَّا النِّعْمَةُ الْأُولَى فَقَوْلُهُ – تَعَالَى – : (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ[2])، أى: جعلنا الغمام يُظَلِّلكم، وذلك في التِّيه بين الشام ومصر حيث سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يُظَلِّلهم من الشمس، وَلَوْلَا أَنْ سَاقَ اللهُ إِلَيْهِمُ الْغَمَامَ يُظَلِّلُهُمْ لَسَفَعَتْهُمُ الشَّمْسُ وَلَفَحَتْ وُجُوهَهُمْ"[3].

ولأهمية الظِّلِّ وفضله، وشدة الحاجة إليه فى تلك البرية الحارقة قدَّمه النظم الكريم على ما امتنَّ الله به عليهم من أطايب الطَّعام.

والظِّلُّ المذكور فى الآيتين ظِلٌّ مخصوص، هو ظِلُّ الغمام، وظِلُّ الغمام مُشَاهَد معروف، لكنه هنا معجزة فى ماهيته ، وفى حركته، ففى ماهيته: هو سحاب مخلوق ليس كسحاب أهل الأرض، يقول الطبرى عن ابن عباس: "هو غمام أبرد من هذا، وأطيب، وهو الذي يأتي الله – عز وجل – فيه يوم القيامة في قوله: (فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ)[4]، وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر، وكان معهم في التِّيه"[5].

وأمّا إعجازه فى حركته فهو مُسَخَّرٌ لهم، يسير بسيرهم، ويُقِيمُ بإقامتهم، كما ذكر الألوسى والشوكانى[6].

وأمَّا النعمة الثانية ففى قوله – تعالى –: (وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)، والمَنُّ: شَيْءٌ كَالطَّلِّ فِيْهِ حَلَاوَةٌ يَسْقُطُ عَلَى الشَّجَرِ، والسَّلْوَى: طَائِرٌ"[7]، يقول صاحب المنار: "الْمَنُّ يَنْزِلُ كَالنَّدَى، وَهُوَ مَادَّةٌ لَزِجَةٌ حُلْوَةٌ تُشْبِهُ الْعَسَلَ، تَقَعُ عَلَى الْحَجَرِ وَوَرَقِ الشَّجَرِ مَائِعَةً، ثُمَّ تَجْمُدُ وَتَجِفُّ فَيَجْمَعُهَا النَّاسُ"[8]،

---

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، جـ١،صـ٢٦٧.

(٢)الْغَمَامُ : مِنَ الْغَمِّ، وَأَصْلُهُ: التَّغْطِيَةُ وَالسَّتْرُ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْقَلْبِ الْحَزِينِ: مَغْمُومٌ؛ لأَنَّ الْحُزْنَ غَطَّى قَلْبَهُ، وَلِلسَّحَابِ: غَمَامٌ؛ لأَنَّهُ يُغَطِّي وَجْهَ الشَّمْسِ، والْغَمَامُ: الغَيْمُ الأَبْيَضُ، وإِنَّمَا سُمِّيَ غَمَامًا؛ لأَنَّهُ يَعُمُّ السَّمَاءَ، أى: يَسْتُرُهَا. لسان العرب مادة (غمم)، جـ٥، صـ ٣٣٠٣.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، جـ٣، صـ٥٢٢.

(٤) البقرة: ٢١٠.

(٥) جامع البيان، جـ٢، صـ٩١.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، تحقيق/ على عبد البارى عطية دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤١٥هـ، جـ٥، صـ٨٣، فتح القدير، للشوكانى، دار المعرفة، بيروت صـ٥٠٦.

(٧) المفردات للراغب الأصفهانى، مادة: (منن)، صـ٤٧٤.

(٨) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، جـ١،صـ٢٦٨.

والسلوى: "طائر بَرِّيٌّ لذيذ اللحم سهل الصيد كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضًا، ويُسمى هذا الطائر أيضًا: السِّمَّانِ"[1].

ومن بلاغة النظم القرآنى فى الآيتين: الاختلاف فى الضمائر، فآية البقرة استعملت ضمير الخطاب: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)، وآية الأعراف استعملت ضمير الغَيْبَة: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)، والسبب فى ذلك — والله أعلم — أن الخطاب فى آية البقرة أُريد به مواجهة بنى إسرائيل بالتوبيخ، لكفرهم بنعم الله — تعالى — وتعريض أنفسهم لعقابه، وأمَّا ضمير الغَيْبَة فى آية الأعراف، فقد أُريد به عرضُ مِنَن الله — عز وجل - على بنى إسرائيل، وعرض العبرة من ذلك، هذا فضلًا عن أن عادة النظم القرآنى تغْيير أُسلوب القصص؛ استجدادًا لنشاط السامع وذهنه.

ومما شاع فى الآيتين من بلاغة النظم: الإيجاز بالحذف، فـ (الْغَمَامُ) مفعول لـ (ظَلَّلْنَا) على إسقاط حرف الجرّ، أي: بالغمَام، كما تقول: ظَلَّلْتُ على فلان بالرداء[2]، ولا يخفى تقديم الجار والمجرور: (عَلَيْكُمُ) على المفعول: (الْغَمَامَ)، وإفادته للتخصيص، فتظليل الغمام مختص بهم مقصور عليهم لا يتعداهم إلى غيرهم. والأمر فى قوله — تعالى -: (كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) أمر إباحةٍ وإذنٍ، وهو مَقولُ قولٍ محذوفٍ تقديره: وقلنا لهم، أو قائلين لهم: كلوا؛ لأن المخاطبين حين نزول القرآن لم يُؤمروا بذلك فدل على أنه من بقية الخبر عن أسلافهم[3]، والقول يُحذف كثيرًا ويبقى المقول؛ وذلك لفهم المعنى، وقد استنبط بعضُهم من قوله: (كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) أنه لا يكفي وضع المالِك الطعامَ بين يدي الإنسان في إباحة الأكل، بل لا يجوز التصرف فيه إلا بإذن المالك[4]. والعطف فى قوله — تعالى -: (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) على محذوف قد حُذف للإيجاز، والإشعار بأنه أمر مُحقَّق غنيٍ عن التصريح به، أي: فظلموا بأن كفروا تلك النِّعمَ الجليلةَ، وما ظلمونا بذلك، فاختُصِر الكلامُ بحذفه لدلالة (وَمَا ظَلَمُونَا) عليه[5]، وللحذف بلاغته[6] فى استيفاء المعنى مع الاختصار فى اللفظ.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، جـ١، صـ٤٩٣.

(٢) البحر المحيط، جـ١، صـ٣٤٥.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: جـ١، صـ٤٩٣.

(٤) ينظر: البحر المحيط، جـ١، صـ٣٤٦، ٣٤٧.

(٥) ينظر: الكشاف: جـ١، صـ١٤٢.

(٦) يقول عبد القاهر فى بلاغة الحذف: " هو بابٌ دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنك ترى به ترك الذِّكر أفصحَ من الذِّكر، والصَّمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِنْ" دلائل الإعجاز، ت/ محمود شاكر، مكتبة الخانجى بالقاهرة، صـ١٤٦.

وتأمل تقديم المفعول: (أَنفُسَهُمْ) على الفعل: (يَظْلِمُونَ)، وإفادته للقصر، حيث إن ظلمهم مختص بهم، ومقصور عليهم لا يتعداهم إلى غيرهم، وقد حصل القصر أولا بمجرد الجمع بين النفي والإثبات، ثم أُكِّد بالتقديم؛ تَهكُّمًا بهم؛ لأن حالهم فى ظلمهم لأنفسهم كحال من يُنْكِي غَيْرَه، كما قيل: يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدوُّ بعدوِّه[1].

ثم تأمل كيف جمع لهم النظم بين الماضى: (كَانُوا)، والمضارع: (يَظْلِمُونَ)، ليشير بالماضى إلى تأصُّل ظلمهم، وبالمضارع إلى تماديهم فى الظلم واستمرارهم على الكفر، وأن الظُّلْم دائمًا ديدنُهم وشيمتهم.

وتأمل تغيير الأسلوب في هذه الجملة: (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)، حيث انتقل النظم القرآنى من خطاب بني إسرائيل فى قوله: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) إلى الحديث عنهم بضمير الغيبة، ويشير الالتفات[2] هنا من الخطاب إلى الغيْبة إلى أن خطابهم جاء فى سياق تَذكِيرِهم بنِعَمِه – تعالى – وأفْضالِه عليهم، وتَبْكِيتِهم على نُكرانهم وكُفْرِهم، والتَّبْكِيتُ بخطابهم فى حضورهم أنكى لهم، فلما عصوا وظلموا أصبحوا غائبين مطرودين من مقام الحضور فَعُبِّر عنهم بطريق الغَيْبة؛ "لقصد الاتعاظ بحالهم وتعريضًا بأنهم مُتَمَادُون فى غَيِّهم وليسوا مستفيقين من ضلالهم فهم بحيث لا يُقِرُّون بأنهم ظلموا أنفسهم"[3]، ولعل الالتفات فى آية الأعراف من الغيبة فى: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) إلى الخطاب فى: (كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) مُرادُه التَّنبيهُ، ولَفْتُ انتباه المخاطبين إلى نِعَم الله – تعالى – عليهم.

ولا يخفى دور طباق السلب[4] فى نهاية الآيتين: (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) حيث جاء طباق السَّلْب بين الفعل المنفى (وَمَا ظَلَمُونَا)، والفعل المثبت (يَظْلِمُونَ)، وكلاهما من مصدر واحد، وقد كشف الطباق هنا عن مدى ضلال بنى إسرائيل وجهلهم عندما قابلوا نعمة الله – تعالى – بالكفر والجحود، وأنهم فى فعلهم هذا ما ظلموا المُنْعِم – تعالى – وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بالكفر إذ

(١) ينظر: التحرير والتنوير، جـ١، صـ٤٩٥.

(٢) الالتفات: هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، ووجه حسنه: أن الكلام إذا نُقل من أُسلوب إلى أُسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظًا للإصغاء إليه. يراجع: الإيضاح بشرح الصعيدى، جـ١، صـ١٥١، والمطول، صـ١٣٤.

(٣) التحرير والتنوير: جـ١، صـ٤٩٥.

(٤) طباق السلب: هو الجمع بين فعلى مصدر واحد مُثْبتٍ ومَنْفِيٍّ، أو أمْرٍ ونَهيٍ. يراجع الإيضاح جـ٤، صـ٧، والمطول، صـ٤١٨.

لا يتخطاهم ضَرَرُه. ومن بلاغة النظم فى الآيتين توافق النظم الإيقاعى بين الفعلين: (ظَلَّلْنَا)، و(أَنزَلْنَا)، فضلًا عن إسناد الفعلين إلى نون العظمة وما يفيده من عظمة التظليل والإنزال، وأنهما فعلان (التظليل والإنزال) عظيمان يليقان بفاعلهما – عز وجل –، كما أن تكرار (عَلَيْكُمُ) فى الآية الأولى، و(عَلَيْهِمْ) فى الآية الثانية قد أحدث أثرًا إيقاعيًّا لا يخفى.

– الظِّلَال تسجد لله – تعالى – بالغدوِّ والآصال.

* قال – تعالى – مُشِيرًا إلى سجود الظِّلَال: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)[1].

فالآية تتحدث عن عظمة الخالق – عز وجل – وجبروته، فالعالم كلّه مقهور له – تعالى – خاضع لما أراد منه، مقصور على مشيئته، يسجد لجلال عظمته، ويَدُلُّ على هذا المعنى تشريك الظِّلَال في السجود، والظِّلالُ ليست أشخاصًا يُتَصَوَّرُ منها السجود بالهيئة المخصوصة، ولكنها داخلة تحت مشيئته – تعالى – يُصرّفها على ما أراد؛ كما جاء فى قوله – تعالى –: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)[2]، والفرق بين السجود فى آية الرعد، وآية النحل هو أن السجود فى آية الرعد خاص بمن يعقل؛ لذا أتى النظم بـ (مَنْ) التى تُستعمل لذوات العقلاء، وأُولى العلم[3]، أمّا السجود فى آية النحل، فهو عامٌّ يشمل جميع المخلوقات؛ ولذا جيء فيها بلفظ (شيء) وهى كلمة تدل على العموم.

وأول ما يُطالعنا من هذه الآية مطلعها الذى افتُتِحَ بالقصر الذى طريقه التقديم، حيث قصرت الآيةُ السجودَ الواقع من أهل السموات والأرض طوعًا وكرهًا، والسجود الواقع من ظِلالِهم بالغدو والآصال، قصرت كلَّ ذلك على الله – جلَّ فى علاه – والمعنى: ولله وحده (يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ) لا لأحدٍ غيره – سبحانه – ولا لأحد معه، فهو قصر قلب وإفراد. والمضارعة فى (يَسْجُدُ) تصور تجدد سجود الكائنات لله تعالى فى كل وقت وحين تجدُّدًا لا يتوقّف ولا ينقطع، امتثالًا لعظمة الخالق وعِزَّته، يقول صاحب الظلال: "السياق يُعبِّر عن الخضوع لمشيئة اللّه بالسجود وهو أقصى رمز للعبودية، ثم يَضُمُّ إلى شخوص من في السماوات والأرض، ظِلالَهم

---

(١) الرعد: ١٥.

(٢) النحل : ٤٨.

(٣) ينظر: حروف المعانى للزجاجى، ت/ د. على توفيق الحَمَد، ط/ الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت، جـ٢، صـ٥٥.

كذلك، ظِلالُهم بالغُدوِّ في الصباح، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظِّلال، يضم هذه الظِّلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال، وهي في ذاتها حقيقة، فالظلال تبع للشخوص، ثم تُلقِي هذه الحقيقة ظلَّها على المشهد، فإذا هو عَجَبٌ، وإذا السجود مزدوج: شخوصٌ وظلالٌ! وإذا الكون كله بما فيه من شخوص وظِلالٍ جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء، كلها تسجد للّه"[1].

وفى المراد بالسجود قولان: أحدهما، أن يكون السجود على حقيقته من وضع الجبهة على الأرض، فإنه يسجد لله – تعالى – الملائكة، والمؤمنون من الثقلين، طوعًا فى حالتي الشِّدَّة والرَّخاء، والكفرة فى حال الشدة والاضطرار يخصون السجود به –سبحانه–.

والقول الثانى فى تفسير السجود: أن يكون بمعنى الخضوع والانقياد، وكلٌّ من فى السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى؛ لأن قدرته ومشيئته – تعالى – نافذة فى الكلِّ[2]، وعلى هذا يكون مستعارًا للانقياد بجامع الخضوع فى كل، وتكون الاستعارة قد صَوَّرت عظمة الخالق – تعالى – وسلطانه الذي قهر كل شيء، بحيث تنقاد لجلاله وإرادته وتصريفه المخلوقاتُ بأسرها من أهل الملأ الأعلى والأسفل، طائعين وكارهين، لا يستطيعون مخالفته أو عصيانه.

وسجود الظِّلال فيه قولان أحدهما: أن كل شخص مؤمنًا كان أو كافرًا يسجد ظلُّه لله – تعالى – ؛لأن الظِّلَّ تابع لصاحبه يسجد بسجوده، أو لأن الظِّلَّ يُرى دائمًا مُلتصقًا بالتراب كهيئة الساجد، والثانى: أن يُراد به الخضوع والانقياد، يبدو هذا جليًّا فى ميلانها من جانب إلى جانب، وطولها؛ بحسب انحطاط الشمس، وقصرها؛ بسبب ارتفاع الشمس، فهى منقادة مستسلمة طوع مشيئة الله – تعالى – فى الامتداد، والتقلُّص، والفيْء، والزوال...[3].

وتأمل النظم فى إسناد الفعل (يَسْجُدُ) لـ (مَنْ)، وهى للعاقل، وتخصيص انقياد العقلاء وسجودهم بالذكر مع كون غيرهم كذلك يشير إلى أن العقلاء هم المكلفون، وأنهم الأصل فى الانقياد والطاعة والسجود، وأن انقيادَهم دليل على انقياد غيرهم، وأن سجودَ غَيرِهم تَبَعٌ لسجودِهم، ومن هنا غَلَّب النظم الكريم العقلاء على غيرهم. وانظر إلى الطباق بين (السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، وما يفيده من تعميم وتأكيد وبيان لمدى خضوع الكائنات وسجودها لله تعالى فكل من فى السموات والأرض يسجدون لله – تعالى – وينقادون لجبروته، فلم يبق ثَمَّ مكان لا سجود فيه. وتأمل الطباق بين (طَوْعًا وَكَرْهًا)، وكَشْفَه

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة، جـ٤، صـ٢٠٥٢.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوى، جـ٣، صـ٣٢٤.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، جـ١٩، صـ٢٦.

لأحوال الساجدين، فالساجدون لله – تعالى – والمنقادون لأوامره إمَّا أن يكونوا طائعين أو كارهين، وفرق شاسع بين من يسجد طوعًا؛ رغبة وامتثالًا، ومن يسجد كَرْهًا امتعاضًا ونفاقًا، قال سفيان: "ظِلُّ المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع، وظِلُّ الكافر يسجُد طوعًا وهو كاره"(١).

وقد كشف الطباق هنا عن مكنون النفوس ودواخلها، وأبرزها واضحة جلية مُؤَكَّدة قوية عن طريق المقارنة بين الضدين، وقديمًا قال المتنبي:

وَنَذِيمُهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ ... وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ(٢)

ويبدو أن الطباق بين (طَوْعًا وَكَرْهًا) طباقٌ خفيٌّ(٣)؛ لأن الذى يقابل الطاعة هو العصيان، والآية لم تجمع بين الطاعة والعصيان وإنما جمعت بين الطاعة وما يتسبب فى العصيان وهو الكُرْه، والعدولُ عن لفظ العصيان إلى لفظ الكُرْهِ يشي بما تُكِنُّه صدورُ الكافرين، وما تنطوى عليه قلوب المشركين، وأن عصيانهم نابع من كراهيتهم لوحدة الأُلوهية وتكاليفها.

وتأمل الطباق بين (وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ) فقد جمعت الآية بين زمانين لسجود الظِّلال، وهما: الغُدُوُّ والآصال، والغُدُوُّ: من أوَّلِ النَّهَارِ، مَا بين صَلاةِ الغَدَاةِ وطُلُوعِ الشَّمْسِ، وقُوبِلَ فى القرآن بالآصَالِ(٤)، والآصَالُ: العَشَايَا، جمع عَشِيَّةٍ، وهى آخر النهار، يُقَال للعَشِيَّةِ: أصِيلٌ، وجَمْعُ الأصِيلِ: أُصُلٌ وآصَالٌ(٥)، وقد ذكرت الآية الغُدوَّ والآصَالَ، أى: الصباح والعَشِيّ زمانين للسجود، والغُدُوُّ يُمثِّلُ النهار، والآصال تمثل الليل، فلم يبق ثَمَّ زمان لا سجود فيه.

و(وَظِلالُهُم) يجوز أن يكون معطوفًا على (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)، ويجوز أن يكون ارتفع بالابتداء، والخبر محذوف تقديره: وَظِلالُهُم تَسْجُدُ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ، وخُصَّ (الْغُدُوِّ وَالآصَالِ) بالذكر؛ لازدياد ظهور الظِّلال فيهما، ولأن آثار القدرة فيهما أبين وأظهر، فسجودها يتضح فى هذين الوقتين، فتميل من ناحية إلى ناحية، وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء(٦)

---

(١) جامع البيان للطبرى، جـ١٦، صـ٤٠٤.

(٢) نَذِيمُهُمْ: نَعِيبُهم، والمعنى: أننا نظلم اللؤماء فى تكلفهم أن يصبحوا أكفاء للممدوح، وبهم عرفنا فضله؛ لأن الأشياء بضدها تَتبيَّن وتَتميَّز وتُعرَف. والبيت فى ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص١٢٧.

(٣) الطباق الخفى هو: الجمع بين معنيين يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق مثل السببية واللزوم. المطول للتفتازانى، صـ٤١٨.

(٤) المفردات للراغب الأصفهانى: مادة (غدا)، صـ٣٥٨.

(٥) المفردات للراغب الأصفهانى: مادة (أصل)، صـ١٩.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، جـ٩، صـ٣٠٢.

وفضلًا عما تضمَّنه نظم الآية من الإعجاز البياني والتصويري في التعبير عن استقصاء الساجدين من حيث المكان، والزمان، وحالة السجود في عدد من الطباقات الرائعة، فضلًا عن ذلك نجد الآية تضمنت إعجازًا علميًّا يُبرز إحكام صُنع الله – عز وجل – وإتقانه في (سجود الظلال)، فمن المعلوم أن من أهم شروط السجود الحقيقي لله – تعالى – في الصلاة: التوجُّه إلى القبلة، وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن ظِلال الأشياء تشير تمامًا إلى اتجاه القبلة (الكعبة المكرمة) في أربعة أوقات محددة من العام[1]، وقد أفاد العلماء من هذه الظاهرة في تحديد اتجاه القبلة في كثير من المناطق[2]. ويُعدُّ هذا إعجازًا وسبقًا قرآنيًّا بكل المقاييس، حيث لم يكن يخطر ببال أحد يوم نزول القرآن وما ذُكر فيه من سجود الظلال أن هذا السجود يمكن أن يكون إشارة وملمحًا إلى أن الظِّلالَ تدلُّ وتشيرُ إلى القبلة حيث البيت الحرام[3]، فتبارك من خلق كل شيء بقدر.

– تفيُّؤ الظِّلال عن اليمين والشَّمائل.

* قال – تعالى –: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[4] ذكرت الآية الكريمة وصفين من أوصاف الظِّلِّ هما أنه يتفيَّأ[5] عن اليمين والشمائل، وأنه يسجد لله رب العالمين. يقول الطبري –: "أو لم ير هؤلاء الذين مكروا السيئات ، إلى ما خلق الله من جسم قائم: شجرٍ، أو جبلٍ، أو غيرِ ذلك، يتفيأ ظِلالُه عن اليمين والشمائل، يقول: يرجع من موضع إلى موضع، فهو في أوّل النهار على حال، ثم يتقلّص، ثم يعود إلى حال أخرى في آخر النهار"[6].

---

(١) هذه الأوقات تكون في يوم ١٦ يناير، ٢٩ مايو، ١٦ يوليه، ٢٩ نوفمبر من كل عام. ينظر: الشمس تتعامد على الكعبة المشرفة، مقالة لمحمود قاسم، منشورة في جريدة الأهرام، العدد الصادر في ٣٠ / ٦ / ٢٠٠٤م.

(٢) يراجع : تحديد القبلة بواسطة الشمس، مقالة لحسن بن محمد باصرة، منشور في مجلة الإعجاز العلمي، الصادرة عن هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بجدة، العدد رقم ١١، لسنة١٤٢٢هـ، صـ٤٠، ٤١.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن الكريم في وصف حركة الظلال، صـ٢٣ – ٢٦.

(٤) النحل : ٤٨.

(٥) الفَيْءُ والفَيْئَةُ: الرُّجُوعُ إِلَى حَالَةٍ مَحْمُودَةٍ، ومنه فَاءَ الظِّلُّ، والفَيْءُ: لا يُقَالُ إِلَّا لِلرَّاجِعِ منه، والفَيْءُ: ما كان شمسًا فَنَسَخَه الظِّلُّ، والجمع: أَفْياءٌ وفُيُوءٌ، وفاءَ الفَيْءُ فَيْئًا: تَحَوَّلَ، وتَفَيَّأَ فيه: تَظَلَّلَ، والفَيْءُ: ما بعد الزَّوالِ مِن الظِّلِّ، وإنما سُمِّي الظِّلُّ فيئًا؛ لرُجُوعه مِن جانب إلى جانب، وتَفَيَّأَتِ الظِّلالُ، أَي: تَقَلَّبَتْ، وتَفَيُّؤُ الظِّلال: رجُوعُها بعدَ انتصاف النهار، والتَّفَيُّؤُ: لا يكون إلا بالعَشِيِّ والظِّلُّ بالغَداةِ وهو ما لَمْ تَنَلْه الشمس، وتَفَيَّأَتِ الشجرةُ وفَيَّأَتْ وفاءَتْ تَفْيِئَةً: كَثُرَ فَيْؤُها، وتَفَيَّأْتُ أَنا في فَيْئِها، وقِيل للظِّلِّ الذي يكون بعدَ الزَّوالِ: فَيْءٌ؛ لأَنه يَرْجِعُ من جانِب الغَرْب إلى جانب الشَّرْق. ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني، مادة (فيأ)، صـ٣٨٩، ولسان العرب، مادة (فيأ)، جـ٥، صـ٣٤٩٥.

(٦) جامع البيان، جـ١٧، صـ٢١٦.

وقوله – تعالى –: (سُجَّدًا لِلَّهِ) منصوب على الحال، أى: حال كون الظِّلَال سُجَّدًا لله، (وَهُمْ دَاخِرُونَ[1]) في محل نصب على الحال، أي: خاضعون صاغرون، يقول الطبرى: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر في هذه الآية أن ظِلَالَ الأشياء هي التي تسجد، وسجودها: مَيَلانها ودورانها من جانب إلى جانب، وناحية إلى ناحية، كما قال ابن عباس، يقال من ذلك: سَجَدت النخلة: إذا مالت"[2]، وهو مضمون الانقياد الذى ذُكِر فى آية الرّعد السابقة.

وأول ما يطالعنا من هذه الآية هو الاستفهام فى قوله – تعالى –: (أَوَلَمْ يَرَوْا...)، حيث دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف (الواو)، وللعلماء فى دخول الهمزة على العاطف آراء: ذهب بعضهم إلى أن حرف العطف فى الأصل كان مُقدَّمًا على الهمزة كما تَقدَّم على غيرها من أدوات الاستفهام الأخرى، وعلى هذا فالأصل فى (أَوَلَمْ يَرَوْا...): وَأَلَمْ يَرَوْا..؟ ؛ لأن أداة الاستفهام جزء من جملة الاستفهام، وهى معطوفة على ما قبلها من الجمل، والعاطف لا يتقدم عليه جزءُ معطوفه، وإنما خُصَّت الهمزة بتقديمها على العاطف؛ تنبيهًا على أنها أصل أدوات الاستفهام؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، وقد خُولف هذا الأصل فى غير الهمزة، فأرادوا التنبيه عليه، فكانت الهمزة بذلك أولى؛ لأصالتها فى الاستفهام[3].

وذهب بعضهم إلى أنه ليس فى دخول همزة الاستفهام على العاطف تقديم ولا تأخير، وإنما يُقَدر محذوف بينهما يصح العطف عليه، أى: أَلَم يَنْظُرُوا وَلَمْ يَرَوا ...[4]، وذهب بعضهم إلى أن حرف العطف صلة زيد بين الهمزة ومدخولها[5]، وذهب بعضهم إلى أنه لا يوجدُ تقديمٌ ولا تأخير بين الهمزة وحرف

---

(١) الدُّخُورُ: الصَّغَارُ والذُّلُّ، يُقال: دَخَرَ الرَّجُلُ يَدْخَرُ دُخُورًا، فهو دَاخِرٌ: ذَلَّ وَصَغُرَ، وهو الذى يفعل ما يُؤمَرُ به شَاء أو أَبَى صاغِرًا قَمِيئًا. لسان العرب، مادة (دخر)، جـ٢، صـ١٣٤٠.

(٢) جامع البيان جـ١٧، صـ٢١٨.

(٣) ينظر: شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك، عالم الكتب، بيروت، صـ١١ – ١٣، وشرح التسهيل لابن مالك، دار هجر، القاهرة، جـ٤، صـ١١٠، ١١١، والتبصرة والتذكرة للصيمرى ت/ د. فتحى أحمد مصطفى،، مركز البحث العلمى، جامعة أم القرى، جـ١، صـ٤٦٧، والجامع الصغير فى النحو لابن هشام، ت/ أحمد محمود المرميل، مكتبة الخانجى، القاهرة، صـ٢١٢، وهمع الهوامع للسيوطى، ت/ عبد السلام هارون، دار البحوث العلمية، الكويت، جـ٤، صـ٣٦٠، والبحر المحيط لأبى حيان، دار الفكر، بيروت، جـ١، صـ٢٩٦.

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشرى، ط/ مصطفى الحلبى، القاهرة، جـ١، صـ ٣٠٠، جـ٢، صـ٢٤٠، وتفسير أبى السعود، جـ٤، صـ١٢٥.

(٥) ينظر: معانى القرآن للأخفش، ت/ د. فائز فارس، ط/ أولى ١٤٠٠هـ، بدون ناشر، جـ١، صـ٤١، والمحرر الوجيز لابن عطية، المجلس العلمى بفاس، المغرب، جـ١، صـ٣٠٣.

العطف، ولا حذفٌ لمعطوف عليه بين الهمزة وحرف العطف، ولا زيادةٌ لحرف العطف، وإنما الهمزة دخلت على حرف العطف فأفادت السؤال عن معناه[1]، يقول الطبرى: "والصواب فى ذلك عندى من القوم أنها واوُ عطفٍ أُدخِلَت عليها ألف الاستفهام"[2].

وفى ضوء هذا الرأى أرى أن دخول همزة الاستفهام على واو العطف فى قوله – تعالى –: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ..﴾ أفاد إنكار معنى الواو، أى: إنكار الجمع بين المتعاطفين، المعطوف وهو ما بعد الواو، والمعطوف عليه وهو محذوف يدل عليه الكلام السابق، وتقديره: أَلَمْ ينظُرُوا وَلَمْ يَرَوْا إلى ما خلق الله...، ويكون الإنكار المستفاد من الاستفهام مُنْصَبًّا على جَمْعِ الذين يمكرون السيئات بين خَصْلَتَى تَرْكِ النَّظَرِ وتَرْكِ الرُّؤْيَة لما يُؤدى بهم إلى الانقياد والإيمان، وهذا أقوى فى الإنكار من مجرد ترك الرؤية فقط.

والإنكارُ هنا إنكارٌ توبيخىٌّ مُوجَّه للذين مكروا السيئات على فِعْل وقع منهم، وهو رؤيتُهم سجود الأشياء وظِلَالِها لله – عز وجل – ثم لم يُؤد بهم هذا إلى الانقياد والإيمان، والمقصود بالإنكار: أنه ما كان ينبغى أن يكون منهم هذا الصنيع.

وقوله: (مِن شَيْءٍ) بيانٌ لـ (مَا) فى قوله: (مَا خَلَقَ اللَّهُ)؛ فإنها موصولة بمعنى الذي، فإن قيل: كيف يُبَيَّنُ الموصول وهو مُبْهَم بـ (شَيْءٍ) وهو مُبْهَم، بل أبْهَمُ مِمَّا قبله؟

فالجواب: أن (شيئًا) قد اتضح، وظهر بوصفه بالجملة بعده، وهي: (يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ)، يقول الزمخشرى: "و(مَا) موصولة بـ(خَلَقَ اللَّهُ)، وهو مُبْهَمٌ بيانه: (مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ)"[3]، ولا شك أن الْإيضاح بعد الإبهام، ومجيء المعنى فى صورتين مختلفتين: إحداهما مُبهمة، والأخرى مُوضَّحة مما يجذب الانتباه، ويرسخ المعنى ويُمكِّنه فى النفس فضل تمكين..

والمضارعة فى قوله: (يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ) تفيد التجدد والحدوث، والفعل يصور حركة ظلال الأشياء يوميًّا، فانتقاص الظلِّ بعد كماله إلى غاية محدودة ثُمَّ ازدياده بعد غاية نقصانه، وتنقله من جهة إلى أخرى على وفقِ تدبير الله، وتقديره بحسب الاختلافاتِ اليوميَّة الواقعة في شَرْق الأرض، وغربها، وبحسب الاختلافات الواقعة في طول السنة على وجه مخصوصٍ، وترتيب مُعيّنٍ لا يكون إلا لكونها مُنقَادة لله – تعالى – خاضعة لتقديره وتدبيره، فكان السجود عبارة عن تلك الحال، وكانت المضارعة تصويرًا صادقًا

---

(١) ينظر: معانى القرآن للأخفش ، جـ١، صـ٤١.

(٢) جامع البيان، دار الفكر، بيروت، جـ١، صـ ٤٤١، وينظر: التحرير والتنوير، جـ١، صـ٥٩٦.

(٣) الكشاف، جـ٢، صـ٤١١، ٤١٢.

لتلك الأحوال. و(ظِلَالُ) جمع ظِلٍّ، وقد أُضيف إلى ضمير مفرد، ومعناه الإضافة إلى ذوي الظلال، "وإنما حسن هذا؛ لأنّ الذي يرجع إليه الضمير، وإن كان واحدًا في اللفظ ، وهو قوله تعالى (إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ) إلاّ أنه كثير في المعنى"[1].

وقيل: إن المراد بالشيء الذى يتفيَّؤُ ظلالُه هو الأشياء الكثيفة من الجبال والأشجار وغيرها سواء كانت جمادًا أو إنسانًا، وقيل: هو الجمادات التي لا يظهر لِظِلَالِها أثرٌ سوى التفيؤ بواسطة الشمس، دون ما يشمل الحيوان الذي يتحرك ظِلُّه بتحركه[2].

والزمخشرى يرى أن المراد بـــ(الْيَمِينِ) و(الشَّمَآئِلِ): جانبا الشيء وشقّاه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء وشِقّيْه[3]، ويقول الألوسى: إنهما قد يكونان مجازًا من إطلاق المقيد على المطلق، أي: ألم يروا الأشياء التي لها ظلالٌ مُتفيِّئة عن جانبي كل واحد منها ترجع من جانب إلى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها؛ فإن لها مشارقَ ومغاربَ بحسب مداراتها اليومية حال كون الظِّلال سُجَّدًا لِلَّهِ أي منقادة له – تعالى – جارية على ما أراد من الامتداد والتَّقلُّص وغيرهما غير ممتنعة عليه – سبحانه – فيما سخَّرها له وهو المراد بسجودها، وقد يُفَسَّر باللصوق في الأرض، أي: حال كونها لاصقة بالأرض على هيئة الساجد[4].

وقوله تعالى: (وَهُمْ داخِرُونَ) حال من الضمير فى (ظِلَاله) الراجع إلى (مِن شَيْءٍ)، والجمعُ باعتبار المعنى، وأورد النظمُ الكريم الصيغة الخاصة بالعقلاء؛ لأن الدُّخُورَ من صفاتهم وخصائصهم، فالدُّخُورُ: الصَّغَارُ وَالذُّلُّ، والدَّاخِرُ: هو الذى يفعل ما يُؤْمَرُ بِهِ، شَاءَ أو أَبَى صَاغِرًا قَمِئًا[5]، والكلام على التغليب؛ لأن في جملة ذلك من يعقل، وهذه الجملة: (وَهُمْ داخِرُونَ) تكميل حسن؛ لوصف الظلال بالسجود ، وأصحابها بالدُّخُورِ الذي هو أبلغ[6]، بيانه: أنه لو اقتصر على وصف الظِّلال بالسجود لتُوُهِّم أن الانقياد مقصور على الظِّلالِ دون أصحابها، فلما قال (وَهُمْ داخِرُونَ) عُلِمَ أن الانقياد والقهر يشمل الظِّلال وأصحابها...

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل، دار الكتب العلمية، بيروت، جـــ ، صـــ٦٩.

(٢) ينظر: روح المعانى للألوسى، جـــ٧، صـــ٣٩٢.

(٣) الكشاف: جـــ٢، صـــ٤١٢.

(٤) روح المعانى للألوسى، جـــ٧، صـــ٣٩٢، ٣٩٣.

(٥) لسان العرب: مادة (دخر) جـــ٢، صـــ١٣٤٠.

(٦) حاشية الشهاب: جـــ٥، صـــ٣٣٥، والتكميل: نوع من أنواع الإطناب، ويُسمَّى أيضًا الاحتراس، وهو أن يُؤْتَى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، ينظر: الإيضاح، جـــ٢، صـــ١٤٢.

وقيل إن السرَّ فى الإتيان بلفظ (الْيَمِينِ) مفردًا، و(الشَّمَآئِلِ) جمعًا: أن العرب إذا ذكرت صيغتي جَمْعٍ عبَّرت عن إحداهما بلفظ المفرد، يقول البغوى: فإن قيل: لم وحَّد اليمين، وجمع الشمائل؟ قيل: من شأن العرب في اجتماع العلامتين الاكتفاء بواحدة، كقوله – تعالى –: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَعَلَى سَمْعِهِم)[1]، وقيل: اليمين يرجع إلى قوله: (مَا خَلَقَ اللَّهُ)، ولفظ (مَا) واحد، ومعناه الجمع، والشمائل: يرجع إلى المعنى[2].

وقال ابن الضائع : "أَفْرَدَ وجَمَع بالنظر إلى الغايتين؛ لأنَّ ظِلَّ الغَداةِ يَضْمَحِلُّ حتى لا يبقى منه إلا اليسيرُ، فكأنه في جهةٍ واحدة، وهي في العَشِيِّ على العكس لاستيلائه على جميع الجهات، فلُحِظَت الغايتان في الآية، هذا من جهةِ المعنى، وأمَّا مِنْ جهةِ اللفظ ففيه مطابقةٌ؛ لأنَّ (سُجَّدًا) جمع فطابقه جَمْعُ الشَّمائل؛ لاتصاله به، فَحَصَل في الآية مطابَقَةُ اللفظِ للمعنى ولَحْظُهما معًا، وتلك الغايةُ في الإعجاز"[3].

وقيل: "إنما وحّد اليمين، والمراد به: الجمع؛ إيجازًا في اللفظ، كقوله – تعالى –: (ويولُّون الدُّبُر)[4]، ودلّت (الشَّمَائلُ) على أن المراد به الجمع، وقال الفراء: إنما وحد اليمين، وجمع الشمائل، ولم يقل: الشِّمَال، لأن كل ذلك جائز في اللغة"[5].

ويَرُدُّ بعض العلماء المعاصرين السرَّ فى ذلك إلى حقيقة علمية هى أن الآية الكريمة عبَّرت عن انتقال الظِّلِّ فى كل من نِصْفَى الأرض الشمالى والجنوبى، أما نصف الأرض الشمالى فإن مراقبة حركة ظلال الأشياء فيه تستلزم أن نقف مواجهين لجهة الشمال، وفى هذا الوضع تكون جهة الشرق على اليمين وجهة الغرب على الشمال، وبما أن ظلال الأشياء فى هذا الوضع تنتقل من جهة الغرب إلى جهة الشرق، فإن هذا يعنى أنها تنتقل من جهة الشمال إلى جهة اليمين، وهو ما يتوافق مع ما جاء فى هذه الآية الكريمة من تفيُّؤِ الظلال عن الشمائل، أى: رجوعها من جهة الشمال إلى اليمين.

وأما نصف الكرة الجنوبى فإن مراقبة حركة ظلال الأشياء فيه تستلزم أن نقف مواجهين لجهة الجنوب، وأن هذا الوضع تكون جهة الغرب على اليمين وجهة الشرق على الشمال، وبما أن ظلال الأشياء فى هذا الوضع تنتقل من جهة الغرب إلى جهة الشرق، فإن هذا يعنى أنها تنتقل من جهة اليمين إلى جهة الشمال، وهو ما يتوافق مع ما جاء فى الآية الكريمة من تفيُّؤِ الظلال عن اليمين، أى: رجوعها من

---

(١) البقرة: ٧.

(٢) تفسير البغوى، جـ٥، صـ٢٢.

(٣) الدر المصون للسمين الحلبى، جـ١، صـ٢٨٥٠.

(٤) القمر: ٤٥.

(٥) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى، جـ٤، صـ٩٨.

جهة اليمين إلى الشمال. وهذا يعنى أن الآية الكريمة قد عبرت بدقة متناهية عن حركة الظلال من جهة الغرب إلى جهة الشرق فى نصف الكرة الشمالى والجنوبى فى آن واحد، وبدقة متناهية باستخدام لفظ اليمين كإشارة لجهة الشرق، ولفظ الشمائل إشارة لجهة الغرب.

ولأن مساحة اليابسة وعدد السكان فى نصف الأرض الشمالى أكبر من نصفها الجنوبى؛ لذا كانت ظلال الأشياء المنتقلة من جهة الشمال لليمين فى النصف الشمالى أكبر بكثير منها فى النصف الجنوبى، ومن هنا جاء تعبير الآية عن الشمائل بصيغة الجمع، والتعبير عن اليمين بصيغة المفرد[1].

ولا مانع أن تكون هذه التعليلات واردة جميعها، فكتاب الله — تعالى — ينبوع لا يغيض ماؤه، ولا تنقضى عجائبه، ولا تفنى أسراره.

وقد جاءت الآية فى نظم بديع حيث اشتملت على عدد من الأساليب التى تضافرت معًا؛ لتؤدى الغرض المراد وهو حمل المخاطبين على الإقرار بعظمة الخالق وقدرته، فالاستفهام الإنكارى فى أولها يدعو إلى التدبر والتأمل فى آية الله المشاهَدَة (الظِّلّ) ومتابعة حركة الظِّلّ الدالة على القدرة الإلهية، وأُسلوب الطباق بين اليمين والشمائل، يدل على إيضاح المعنى وإبرازه مُؤكّدًا، والمضارعة فى: (يَتَفَيَّأُ ظِلالُه ...) ترسم لنا صورة هذا الظِّلّ فى حركته وتنقله بدقة متناهية، وما أجمل ختام الآية (وَهُمْ دَاخِرُونَ) حيث يدل على انقياد المخلوقات أمام قدرة القادر العزيز انقيادًا ثابتًا دائمًا.

— نعمة الظِّلال والأكنان والسرابيل.

* قال — تعالى -: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[2].

ذكرت الآية الكريمة (الظِّلال) فى سياق الحديث عن نعم الله — تعالى — على عباده فيما يتصل بالسُّكْنى والاستقرار، ووسائل الراحة، ففى الآية السابقة لهذه الآية جاء قوله — تعالى -: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾[3]، فكما أن البيوت الثابتة نِعْمَةٌ، والخيام المتنقلة نعمة،

---

(١) ينظر فى ذلك: إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظلال، بحث ألقاه الدكتور/ يحيى وزيرى فى المؤتمر العالمى الثامن للإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة بالكويت، وطبعته الهيئة العالمية للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، وهذه المعلومات فى صـ٩، ١٠من المطبوع، ومجمل كلام الدكتور يحيى موجود فى روح المعانى للألوسى، جـ٧،صـ٣٩٤.

(٢) النحل: ٨١.

(٣) النحل: ٨٠.

والكهوف فى الجبال نعمة، والملابس نعمة، والدروع فى الحرب نعمة، كذلك (الظِّلَال) من النِّعَم التى أتمَّها الله على خلقه، وجعلها مُوجِبَة للإيمان به والانقياد له. ورد فى تفسير الطبرى أن المعنى: كما أعطاكم ربُّكم هذه الأشياء التي وصفها في هذه الآيات نعمة منه بذلك عليكم، فكذا يُتِمّ نعمته عليكم لعلكم تُسْلِمون؛ لتخضعوا لله بالطاعة، وتُخْلِصُوا له العبادة[1].

وقد ذكرت الآية عددًا من نعم الله – تعالى – على العباد، وهذه النِّعَم حسب ترتيب الآية كالآتى: الظِّلال، والأكْنَان[2]، والسرابيل[3].

والظِّلال: جمع ظِلٍّ، وهو كل ما يُستَظَلُّ به من البيوت، والشجر، والسحاب، وغيره، ومما يُلحظ فى هذه النِّعم أنها أتت بصيغة الجمع، والتنكير، وجمعها وتنكيرها يتناسب مع سياق سورة النحل الذى بُنِى على تعداد نعم الله – تعالى – على خلقه، وتذكيرهم بآلائه؛ ولذا قال مجاهد: "هذه السورة تُسمَّى سورة النِّعَم"[4]، فمقام تعداد النِّعَم تناسبه صيغة الجمع، كما يناسبه التنكير؛ لدلالتهما على التكثير والتنويع.

ويشير تنكِيرُ الظِّلال، وجَمعُها إلى كثرتها وتنوعها بتنوع الأجسام المُحْدِثَة لها من جبال، وسُحُب، وأشجار، وظُلَلٍ وغيرها مما له نفع عظيم للإنسان، كما يشير تنكير الأكنان، وجَمْعُها إلى كثرتها وتنوعها من كهوف، ومغارات، وحصون، وغِيران – جمع غار – جعلها الله – تعالى – للخلق يأْوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها، كما يشير تنكير السَرَابِيل الأولى، وجَمْعُها إلى تنوعها وكثرتها، حيث تكون من الصوف، والقطن، والكتان، والحرير، وغيرْ ذلك، وأمَّا (سَرَابِيل) الثانية، فتكون من الحديد، دُرُوعًا، وزُرُدًا ، وسلاحًا، وغير ذلك.

ومما يلفت النظر فى هذه الآية ترتيب النِّعَم التى ذُكِرت وهى: (الظِّلال – الأكنان – السرابيل)، ولعل الترتيب هنا ترتيب تصاعدى بحسب الأهمية، فللنفس فى الظلال استرواح وسكن، ولها فى الأكنان

---

(١) ينظر: جامع البيان فى تأويل القرآن، لابن جرير الطبرى، ت/ أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة، جـ١٧،صـ٢٧٠.

(٢) الأكنان: جمع كِنٍّ، والكِنُّ: وِقَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسِتْرُهُ، والْكِنُّ: ما يَرُدُّ الحرَّ والبرد من الأبنية والمساكن، والكِنُّ: كُلُّ شيْءٍ وَقَى شيئًا. لسان العرب، مادة (ك . ن . ن) جـ ٥، صـ٣٩٤٢.

(٣) السَّرَابِيلُ: جَمْعُ سِرْبَالٍ، وهو: القَمِيصُ والدِّرْعُ، وكلُّ مَا لُبِسَ فهو سِرْبَال. لسان العرب، مادة (س.ر.ب.ل)جـ ٣، صـ١٩٨٣.

(٤) الدرالمنثور في التفسير بالمأثور لعبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ت/مركزهجر للبحوث، دارهجر، مصر١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، جـ٩، صـ٩٣.

استرواح وسكن وطمأنينة، ولها فى السرابيل استرواح وسكن، وطمأنينة ووقاية، فقد يصبر الإنسان على انعدام الظل والأكنان لكنه لا يستغنى عن السربال الذى يقيه عوادى الطبيعة وعوادى المخلوقات، فضلًا عن الستر الذى يصاحبه فى جميع أحواله بخلاف ستْر الظلال والأكنان.

وتبدو بلاغة الآية الفائقة فى مراعاة أحوال المخاطبين من العرب، وطبيعة حياتهم ومعيشتهم، يبدو ذلك جليًّا فى مخاطبة القرآن لهم بما يعرفون حيث قال: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا)، وما جعل لهم من السهول أكثر وأعظم، ولكنهم كانوا أصحاب جبال، وقال: (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)، وما تقى من البرد أكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حرٍّ، فالوقاية من الحرِّ أهم عندهم، وقلما يَهُمُّهم البرد؛ لكونه يسيرًا محتملًا[1].

ومما يزيد من دقة النظم القرآنى أنه جمع فى هذه الآية بين أُمور متناسبة، فـ(الظلال، والأكنان، والسرابيل) تنتظمُ جميعًا فى سلك السَّتْر والتغطية، وأنها من حاجات الإنسان التى لا يستغنى عنها، وهذا ما يُعرف فى علم البديع بمراعاة النظير[2]، وهو مما يُضفى على الكلام تلاؤمًا وانسجامًا وتآلفًا وتناسبًا، وبخاصة أن مِنَّة الله — تعالى — على عباده بتلك النعم التى تتلاءم فى الستر والوقاية، تتلاءم أيضًا مع طبيعة تلك الديار الغالبة الحرارة.

وتأمل التشبيه الذى ذُيِّلت به الآية: (كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)، فالله — تعالى — يُشبِّه إحسانه فيما بقى بإحسانه فيما مضى، يقول البيضاوى: "كإتمام هذه النِّعَم التى تقدمت يُتِمّ نعمته عليكم لعلكم تُسْلِمون، أى: تنظرون فى نِعَمِه فتؤمنون به وتنقادون لِحُكْمِه"[3]، ولا أفهم عبارة الشهاب الخفاجى التى يقول فيها: "(كَذَلِكَ) لتشبيه إتمام النِّعم فى الماضى بإتمامها فى المستقبل"[4] حيث جعل إتمام النِّعم فى الماضى مُشَبَّهًا، وإتمامها فى المستقبل مُشبهًا به وهذا عكس المقصود، ويتنافى مع حقيقة التشبيه من

---

(١) ينظر: جامع البيان فى تأويل القرآن، لابن جرير الطبرى، جـ١٧،صـ٢٧١، وروح المعانى لشهاب الدين ت/ على عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ، جـ٧، صـ ٤٤١

(٢) مراعاة النظير: "أن يُجْمَع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة لا بالتضاد بل بالتوافق فى كون ما جُمع من واد واحد؛ لصحبته فى إدراك، أو لمناسبة فى شكل، أو لتوقف بعض على بعض أو ما أشبه شيئًا من ذلك" مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى، جـ٤، ٣٠١، ٣٠٢، وينظر: مختصر التفتازانى ، وعروس الأفراح للسبكى، وحاشية الدسوقى على المختصر، جـ٤، صـ٣٠١.

(٣) تفسير البيضاوى، دار الفكر، بيروت، جـ٣، صـ٤١٤.

(٤) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، دار صادر، بيروت، جـ٥، صـ٣٥٩.

إلحاق مجهول الصفة بمعلومها، وعبارته الثانية أدق حيث يقول: "كما أحسن الله فيما مضى يُحسن فيما بقى، أو هو تشبيه لهذا الإتمام به"[1].

والصورة التشبيهية هنا نهج فريد لم تُعهد كثيرًا فى كلام العرب؛ ذلك لأن الناظر فى هذا التشبيه يرى أداة التشبيه (الكاف) قد أتت عقب جُمَلٍ من الكلام لها معنًى قد أدته، فدخلت أداة التشبيه على اسم الإشارة (ذا) المشار به إلى مجموع تلك الجمل باعتبار المعانى التى أدّتها، فكان اسم الإشارة مُشَبَّهًا به ملحوظًا فيه معانى تلك الجمل، وأتى بعد ذلك المشبه: (يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ)، والمعهود أن المشبه رتبته التقدم على المشبه به، وعلى الكاف[2].

ولعل السِّرَّ فى تقدم المشبه به هنا أنه لم يستقل بالمعنى؛ لأنه مشار به إلى معانى الجمل التى سبقته؛ فقُدِّمَ لِتَقْدِيمِها، ولعلَّ البدء بأداة التشبيه هنا مُولِيًا لها المشبه به يُشعر باتصال الكلام، أما لو بُدِئَ بالمشبه (يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ) لتُوُهِّم زوال ذلك الاتصال[3].

ومما يُلْحظُ فى جملة التشبيه: إفراد النِّعْمَة، فلم يقل مثلًا: يُتِمُّ نِعَمَهُ بصيغة الجمع مراعاة لجمع الظلال، والأكنان، والسرابيل، وإنما أفردها: إشارة إلى أن جميع النِّعَم مهما تكاثرت وتنوَّعت فهى بجانب جلال الله – تعالى – وسعة مُلْكِه، بمثابة النِّعْمَةِ الواحدة قِلَّة ويُسْرًا، يقول أبو السعود: "وإفراد النِّعْمة إما لأن المراد بها: المصدر، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيءٌ قليل"[4].

– الظِّلُّ يُمَدُّ ويُقبَض.

* قال – تعالى –: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا)[5].فقد ذكرت الآيتان الكريمتان أربعة أوصاف للظِّلِّ هى: أنه ممدود، وأنه من الممكن أن يكون ساكنًا، وأنه مرتبط بالشمس، وأنه يُقْبَضُ قبضًا يسيرًا.ويشير قوله – تعالى –: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) إلى الصفة الأولى وهى: امتداد الظل، والمَدُّ: بسط الشيء المنقبض، وهو هنا: الزيادة في مقدار الظِّلِّ، وهذا يكون – كما قال ابن عباس – ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس[6]، وهو أطيب الأوقات، وظِلُّه لا شمس معه، وحقيقة الظِّل: أنه أمر متوسط بين الضوء

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، دار صادر، بيروت، جـ٥، صـ٣٥٩.

(٢) ينظر:قصيدة المتنبى الرفق بالجانى عتاب رؤية بلاغية نقدية للباحث،مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا.

(٣) ينظر: د/ عبد العظيم المطعنى، خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية، جـ٢، ص٢٩١.

(٤) تفسير أبى السعود، ج٤، صـ١٤٥، وينظر: محاسن التأويل للقاسمى

(٥) الفرقان: ٤٥، ٤٦.

(٦) جامع البيان للطبرى، جـ١٩، صـ٢٧٥.

الخالص والظلمة الخالصة وهو أعدل من الطرفين؛ لأن الظُّلمة الخالصة تنفر عنها الطِّباعُ، وتمنع النظر، وشعاعُ الشمس يبهرُ البصرَ، ويغلبه، ويُؤْذِى بالحرِّ، ومن هنا كان ظِلُّ الجنة ممدودًا[1].

أو يقال: إن ظلال الأشياء تمتدُّ فى جهة الغرب عند شروق الشمس إلى أقصى درجة ممكنة، ثُمَّ تَقْصُر بفعل إزالة أشعة الشمس لها، ثم تعود بعد الظهيرة إلى الامتداد مرة أخرى فى جهة الشرق حتى تصل إلى أقصى درجة ممكنة لها وقت غروب الشمس[2]، فالظلُّ على هذا هو ما يتعارفه الناس من حالةٍ مخصوصةٍ يشاهدونها في موضعٍ يحول بينهم وبين الشَّمسِ جسمٌ كثيفٌ مُخالَفةً لما في جوانبه من مواقعِ ضَحِّ الشَّمسِ، وهذا فى رأيي أولى؛ لأنَّ المرادَ: تنبيهُ النَّاسِ على عظيم قُدرة الله – عزَّ وجلَّ – وبالغِ حكمتِه فيما يشاهدونَه.

وتأمل تركيب جملة الاستفهام فى (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ)، فالهمزة دخلت على حرف النفى (لم) الداخل على فعل الرؤية (ترَ)، "ويفيد هذا الأسلوب: التقرير، والتعجيب، والتنبيه، والتذكير بما فى حيِّز الرؤية، سواء أكان معلومًا للمخاطب أم غير معلوم"[3]، وما فى حيّز الرؤية هنا هو حال الظِّلِّ فى تمدُّدِه ثم انقباضه شيئًا فشيئًا، وهو أمر معلوم مشاهد لا تنكره الأبصار، وخُصَّ بالذكر فى معرض الاستدلال على وحدانية الله – عز وجلَّ – ؛ "لأنه سريع التَّغيُّر، والتَّغيُّرُ يقتضى مُغيِّرًا غَيَّرَه، ومُدَبِّرًا له"[4]

والخطاب للرسول – صلى الله عليه وسلم – ولكل من يتأتى خطابه، وجميع المكلفين مُشْتَركون في أنه يجب تَنْبِيهُهم لهذه النعمة وتمكينهم من الاستدلال بها على وجود الخالق المنعم، "والرؤية هنا بصرية؛ لأنها التى تتعدَّى بإلى، وفى الكلام مُضاف مُقدَّر حُذِف وأقيم المضاف إليه مقامه، أي: ألم تنظر إلى صنع ربك، أو حكمة ربك، أو فِعْلِ ربك؛ لأنه ليس المقصود رؤية ذات اللّه – عز وجل –"[5].

والإتيان بصفة الربوبية فى قوله – تعالى –: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ)، وإضافتها إلى ضميره – صلى الله عليه وسلم – لتشريفه وتكريمه، وتشويقه إلى إدامة النظر فى دلائل القدرة، والإقبال على الاعتبار بعجيب صنع الله، فربُّك المنعمُ أيُّها المخاطب هو من يدعوك للنظر والتأمل، "ولعل توجيه الرؤية إليه – سبحانه –

(١) روح المعانى للألوسى، جـ١٠، صـ٢٧.

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبى حيان، جـ٨، صـ١١٢.

(٣) أساليب الاستفهام فى البيان النبوى للباحث، بحث دكتوراه مخطوط فى كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، صـ٦٦ .

(٤) البحر المحيط لأبى حيان، جـ٦، صـ٥٤٠.

(٥) تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى، دار الأضواء، بيروت، صـ٢٥١، روح المعانى للألوسى، جـ١٠، صـ٢٦.

مع أن المراد تقرير رؤيته – عليه الصلاة والسلام – لكيفية مدِّ الظِّلِّ؛ للتنبيه على أن نَظَره – عليه الصلاة والسلام – غيرُ مقصور على ما يطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره – صلّى الله عليه وسلّم – معرفة شئون الصانع المجيد جل جلاله"[1].

والإشارة إلى إمكانية جَعْلِ الظِّلِّ ساكنًا نراها فى قوله — تعالى –: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أى: دائمًا لا يزول، ممدودًا لا تُذهِبُه الشمس[2]، أو لاصقًا بأصل كُلِّ مُظِلٍّ من جبل وبناء وشجر، فلا ينتفع به أحد، وقد أثبت العلم الحديث أن الظِّلَّ الساكن موجودٌ فعلًا، وأنه يتمثَّل فى ثبات طول الظِّل الممدود كما هو الحال فى ظِلِّ الكرة الأرضية فى الفضاء، أو زوال الظِّلِّ تمامًا وعدم وجوده كما يحدث فى المنطقة المدارية من الأرض وقت الظهيرة، فإنه لا يوجد ظلٌّ للأشياء، وهو ما يُعدُّ إعجازًا وسبقًا قرآنيًّا[3].

وقد أُتِى بهذه الجملة: ﴿وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِنًا﴾ معترضة[4] بين قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾، والغرض من الجملة المعترضة هنا هو: "التذكير بأن فى الظِّل مِنَّةً"[5]، وأيضًا للتنبيه من أول الأمر على أنه لا دخل للأسباب العادية: من طلوع الشمس وحركتها، أو وجود الأجرام الكثيفة الشاخصة فى ظهور الظِّل، وامتداده، وقبضه، وإنما المؤثر فى ذلك حقيقة هو مشيئة الله — تعالى — وقدرته.

وقد حُذِف من الآية مفعول المشيئة والأصل لا محالة: ولو شاء سُكُونَهُ لجَعَلَه ساكنًا، وحَذْفُ مفعول المشيئة لدلالة المذكور عليه شائع مستمرٌّ فى أمثال هذا التركيب، والبلاغة فى أن يُجاء به كذلك محذوفًا؛ لما فيه من الحسن والغرابة، يقول الشيخ عبد القاهر: "الواجب فى حكم البلاغة أن لا يُنْطَق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ، .... وذلك أن البيان إذا ورد بعد الإبهام، وبعد التحريك له يكون له لطفٌ ونبلٌ لا يكون إذا لم يتقدم ما يُحرِّك...."[6].

وأمَّا وصف الظِّلِّ بأنه مرتبط بالشمس، فقد جاء فى قوله — تعالى –: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، "أي: جعلنا الشمس بنسخها الظِّلَّ عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى؛ لأن الأشياء تُعرَف

---

(١) روح المعان للألوسى، جـ١٠، صـ٢٦.

(٢) جامع البيان للطبرى، جـ١٩، صـ٢٧٦.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظِّلال ، صـ٢٠ -٢٢.

(٤) الاعتراض هو: أن يُؤتى بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى دفع الإيهام. الإيضاح، جـ٢، صـ١٤٧.

(٥) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ١٩، صـ٦٤.

(٦) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى، ت/ محمود شاكر، مكتبة الخانجى بالقاهرة، صـ١٦٣، ١٦٤.

بأضدادها ولولا الشمس ما عُرِف الظِّلُّ، ولولا النور ما عُرِفت الظلمة"[1]، فالشمس يُستَدلُّ بها على الظِّلِّ، ويُستَدلُّ بأحوالها على أحواله؛ وذلك لأن الظِّلَّ يتبعها فيزداد بها ويَنْقُص، ويَمْتَدُّ ويَتَقَلَّصُ، والناس يستدلون بالشمس وبأحوالها، في سيرها على الظِّلِّ متى يتسع ومتى ينقبض، ومتى يزول عن مكان إلى آخر، فيبنون على ذلك انتفاعهم به وجلوسهم فيه[2].

وقد ثبت علميًّا أن هناك علاقة عكسية بين زاوية ارتفاع الشمس وطول الظِّلِّ فى كلِّ مناطق العالم بلا استثناء وعلى مدار الساعة واليوم والسَّنَة، مما يُعدُّ إعجازًا؛ لأن إثبات هذه العلاقة يحتاج إلى دراسة أطوال الظِّلَال وعلاقتها بالزوايا الشمسية فى كلِّ مناطق العالم، وهو أمرٌ لم يكن مُتاحًا أو معروفًا وقت نزول القرآن الكريم[3].

وأمَّا قوله — تعالى — : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فيشير إلى الصفة الرابعة من صفات الظِّل الواردة فى الآيتين، وهى: أنه يُقبَضُ قبضًا يسيرًا، "والقبض: ضِدُّ المَدِّ فهو مستعمل في معنى النَّقْص، أي: نَقَصْنا امتداده، والقَبْض هنا استعارة للنقص، وتعديته بقوله ﴿إِلَيْنَا﴾ تخييل، شُبِّه الظِّلُّ بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه على طريقة المكنية، وحرف (إلى) ومجروره تخييل"[4]. وقد اختلف المفسرون فى المراد من وصف القبض باليسير، فمنهم من رأى أن (يَسِيرًا) بمعنى: سهلًا[5]، ومنهم من رأى أن معناه: بطيئًا على مهل، دون طفرة، وفي هذا القبض اليسير شيئا بعد شيء من المنافع ما لا يُعدّ ولا يُحصَر، ولو قُبِض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظِّلِّ والشمس جميعا[6].

كأنه يقول لهم أنظروا كيف يُقبَضُ الظِّلُّ قبضًا يسيرًا، وكيف يسير بشكل هادئ من صورة إلى صورة، يطول ويقصر وأنتم تشاهدونه؛ وفى ذلك إشارة إلى عظمة الصَّانع والصُّنع، وقد كشف العلم الحديث عن شأن الأرض وكيف تدور حول نفسها وحول الشمس، ولو كان القبضُ غَيرَ يسيرٍ ما صَلُحت الحياة على الأرض. وتأمل كيف أفرد النَّظمُ الكريم المسند إليه فى (مَدَّ – شَاءَ – لجعله)، مشيرًا بذلك إلى وحدانية الله – عز وجل – فى ربوبيته، وتفرده فى قدرته، وتنزُّهه عن الشريك والمُعين، ثم تأمل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، جـ١٣، صـ٣٧.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشرى، جـ٣، صـ٩٤.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظِّلال ، صـ١٣.

(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ١٩، صـ٦٥.

(٥) النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي، ت: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ٤، صـ١٤٧، والكشاف للزمخشرى، جـ٣، صـ٩٤.

(٦) الكشاف للزمخشرى، جـ٣، صـ٩٤، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ١٩، ٦٦.

نون العظمة فى: (جَعَلْنَا - قَبَضْنَاهُ - إِلَيْنَا)، حيث أتى النظم الكريم بنون العظمة، تفخيمًا، وتقديسًا وإجلالًا لذاته - تعالى -

وتأمل الالتفات فى النظم الكريم حيث عدل النظم عن لفظ الغيبة فى قوله: (مَدَّ - شَاءَ - لجعله) إلى لفظ التكلم فى قوله: (ثُمَّ جَعَلْنَا)، وفضلًا عما يفيده الالتفات من الافتنان فى الكلام والتصرف فيه؛ "لأن الكلام إذا نُقِل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"[1]، فضلًا عن ذلك فإننا نجد الالتفات إلى نون العظمة إنما جاء؛ لِمَا فى الجَعْل المذكور العارى عن سببية التأثير - حسبما نطقت به جملة الشَّرط الاعتراضية - مع ما يُشَاهَدُ بين الشَّمسِ والظلِّ من الدَّورانِ المُطَّردِ المنبئ عن السَّبَبيّةِ من مزيد دلالة على عظمِ القُدرةِ ودقة الصَّنْعَة، وفيه تنبيه على مزيد المِنَّة، وضمير المتكلم أدخل في الامتنان من ضمير الغائب.

ولا يخفى سرُّ الإتيان بـ(ثُمَّ) مرتين فى الآيتين من قصدٍ إلى ما تدلُّ عليه من معنى: التشريك فى الحكم، والترتيب والمهلة[2]، فالتراخى المستفاد هنا إمَّا تراخى زمانى، ناتج عن التفاوت فى البدايات، أى: جعل الله هذه الأحوال حالًا بعد حال، فبين ابتداء الفجر وطلوع الشمس بُعْدٌ، وكذا ما بعده.

وقد يكون التراخى المستفاد من (ثُمَّ) تراخ رُتَبِىّ؛ لبيان التفاضل بين هذه الأحوال الثلاثة، وعليه ففي (ثُمَّ) استعارة تبعية شُبِّه فيها تباعدُ الرتبة بالتباعد الزماني فاستعير له ما يدل عليه، وهو إمّا من الأدنى إلى الأعلى، فإنّ جَعْلَ الشَّمسِ دليلًا بطلوعها أنفَعُ من الظِّلِّ الصِّرفِ، وارتفاعُها المُؤَدِّى للقبضِ أنفعُ منه، أو بالعكس فإنّ الظِّلَّ أطيب الأحوال، وأدنى منه وقتُ الطلوعِ، وأدنى منه وقتُ الشعاعِ[3].

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: (ثُمَّ) فى هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة، كأن الثانى أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما؛ تشبيهًا لتباعد ما بينهما فى الفضل بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت"[4]

وتأمل الطباق الخفى بين قوله: (مَدَّ)، وقوله: (سَاكِنًا)، فقد جمعت الآية الأولى بين السكون والمَدِّ، والذى يقابل السكون هو الحركة، وبما أن المَدَّ يتسبب عن الحركة وينتج عنه صحَّ الطباق، وقد كشف الطباق هنا عن حالتين من أحوال الظِّل، الحالة الأولى: أنه ممدود ومتحرك بدلالة الشمس عليه

---

(١) الكشاف للزمخشرى، جـ١، صـ٦٤.

(٢) ينظر: مغنى اللبيب لابن هشام، ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة محمد على صبيح بالقاهرة، جـ١، صـ١١٧.

(٣) ينظر: حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى، جـ٦، صـ٤٢٧.

(٤) الكشاف للزمخشرى، جـ٣، صـ٩٤.

وبما ينفع الناس، والحالة الثانية: أنه من الممكن أن يكون ساكنًا لو اقتضت مشيئة الله — تعالى — ذلك، وساعتها لن تستقيم الحياة على الأرض، لقد كشف الطباق عن هاتين الحالتين؛ ليعلم الإنسان مدى فضل الله — عز وجل — على الناس، "ففى مدِّ الظِّلِّ وقبضه نعمةُ معرفةِ أوقات النهار للصلوات، وأعمال الناس، ونعمة التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس، وفوائد الفيء بحيث إن الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرد بحلول الظل، والفريق الذي كان في الظل ينتفع بانقباضه"[1].

ومن عظمة النظم القرآنى فى الآيتين أن عرض مشهدًا مألوفًا، هو مشهد الظِّلِّ وحركته فى صورة بديعة تتحرك لها النفس، ويهتز لها الوجدان، يقول سيد قطب: "وفى الأرض مشهد متكرر يمر به الناس غافلين، وفى تأمله وتتبع حركته الوئيدة — التى تكاد تتم فى الخيال وإن كانت معروضة فى العيان — ما يلمس النفس، ويؤثر فى الوجدان، ويتيح الفرصة لألوان شتى من التأملات، ذلك منظر الظِّلِّ الذى تلقيه الأجرام فيبدو ساكنًا وهو يتحرك ببطء لطيف، وفى هذا المشهد جمال طبعى يُغرى الخيال بالجولان، ويملى للخواطر فى الهيمان، وكم فى المشاهد المألوفة المكرورة ما يبدو جديدًا كأنما تتملاه العين أول مرة حين تتجه إليه بالحس الشاعر المتفتح، والعين المتيقظة للألوان"[2].

— الظِّلُّ ملاذًا يأوى إليه الأنبياء.

قال — تعالى —: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِير، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[3].

هاتان الآيتان تشيران إلى نبأ خروج موسى عليه السلام من مصر بعد مطاردة فرعون له ومحاولة قتله، فهداه الله تعالى إلى التوجُّه إلى مدين؛ ليقضى الله أمرًا كان مفعولا، وللظِّل فى نبأ وصول موسى عليه السلام إلى مدين دورُه الذى يكشف جانبًا مما اكتنف تلك الرحلة الشاقة، ومكانتُه التى تبين خصوصيته فى اتصال العبد بخالقه واستدرار رحمته. ولنبدأ بما بدأ به النظم الكريم وهو قوله — تعالى —: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾، و(لَمَّا) حرف توقيت "يختص بالماضى، فيقتضى جملتين وُجِدت ثانيتهما عند وجود أُولاهما"[4]، أي: عندما حَلَّ بأرض مدين وجد عليه أمة، والوُرُودُ: خِلَافُ

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ١٩، صـ٦٦.

(٢) ينظر:التصوير الفنى فى القرآن لسيدقطب،الطبعة الخامسة عشرة١٤٢٢هـ،دارالشروق،القاهرة،صـ٧٠،٦٩.

(٣) القصص: ٢٣ ، ٢٤.

(٤) مغنى اللبيب لابن هشام، ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة محمد على صبيح بالقاهرة، جـ١، صـ٢٨٠.

الصَّدَر، وأصْلُه قَصْدُ المَاءِ[1]، ومدين: بلدة معروفة بتخوم الأردن تقع شمال غرب الجزيرة العربية ناحية خليج العقبة بين الأردن والمملكة العربية السعودية، والمراد بورود الماء: مكان الماء، من إطلاق الحَالّ وهو الماء وإرادة المَحَلّ وهو البئر، وماء القوم هو الذي تُعرف به ديارهم؛ لأن القبائل كانت تقطن عند المياه وكانوا يَكْنُون عن أرض القبيلة بماء بني فلان وإنَّما أمَّ المَاءَ؛ لأنه مُجتمع الناس، فهنالك يتعرف لمن يصاحبه ويُضَيِّفه[2].

والأمة: كُلُّ جَمَاعَةٍ يَجْمَعُهم أمْرٌ مَّا، إمَّا دِينٌ وَاحِدٌ، أو زَمَانٌ وَاحِدٌ، أو مَكَانٌ وَاحِدٌ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الأمْرُ الجَامِعُ تَسْخِيرًا أو اخْتِيَارًا، وَجَمْعُهَا أُمَمٌ[3]، ولم يَذكر النَّظمُ الكريم مفعولًا لـ (يَسْقُونَ)، والغرض من حذف المفعول هنا هو قصد التَّعْمِيم لما من شأنه أن يُسْقى من الأنعام والناس، والأشجار وغيرها، أو أن الغرض لا يتعلّق بمعرفة المَسْقِيِّ ولكن بما بعده من انزواء المرأتين عن السَّقْي[4].

والذَّوْدُ: السَّوْقُ والطَّرْدُ والدَّفْعُ[5]، والخَطْبُ: الأمْرُ العَظِيمُ الذِى يَكْثُرُ فيه التَّخَاطُبُ، ومنه قولهم: جَلَّ الخَطْبُ، أى: عَظُمَ الأمْرُ والشَّأنُ[6]، والمعنى أن موسى – عليه السلام – وجد من دون السُّقَاة فتاتين تمنعان مواشيهما عن الماء، فسألهما: ما شأنُكُمَا؟ فأجابتاه بأن من عادتهما ألّا يسقيان حتى يصرف الرعاء مواشيهم ؛ عجزًا عن مساجلتهم، وحذرًا من مخالطتهم، وكذلك؛ لأن أباهما شيخ كبير لا يقوى على الرَّعْى والسَّقْي.

ولم يقعد موسى – عليه السلام – وهو المطارد، المهاجر، المكدود، ليستريح، وهو يشهد هذا الأمر المخالف للمعروف، إذ الأولى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة، أن تَسْقِي المرأتان وتَصْدُرَا بأغنامهما أولًا، وأن يُفْسِح لهما الرجالُ ويُعِينُوهُما، وهذا ما لم يحدث؛ فسَقَى لهما؛ رأفة بهما، وغوثًا لهما، ثم تولى إلى الظِّلّ.

وتأمل المُضَارعة فى قوله: (تَذُودَانِ) وما فيها من تجدُّد سوق المواشى ودفعها ومعاناة حبسها عن أن تختلط بمواشى الرعاء، واستمرار تلك المعاناة، وربما كان ذلك هو ما لفت انتباه موسى – عليه السلام – فسأل الفتاتين سؤال تعجُّب واستنكار؛ لأن من شأن النخوة والمروءة فى مثل هذه الحال أن تُسْقى

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى، مادة (ورد)، صـ٥١٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ٢٠، صـ٣٧.

(٣) المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى، مادة (أم)، صـ٢٣.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ٢٠، صـ٣٨.

(٥) لسان العرب لابن منظور مادة (ذود)، جـ٣، صـ١٥٢٥.

(٦) لسان العرب لابن منظور مادة (خطب)، جـ٢، صـ١١٩٤.

مواشى الفتاتين أوَّلًا، وتأمل المضارعة فى ردِّ الفتاتين: (لا نَسْقِي)، وما تفيده من استمرارهما فى عدم السَّقي إلى أن ينصرف الرعاء، وتأمل الفاء فى قوله: (فَسَقَى لَهُمَا) وما تفيده من الترتيب والتعقيب، أى: فبادر مسرعًا إلى سَقْى غنمهما دون مَهَلٍ أو تأخُّر؛ وذلك من قوة مروءته أن اقتحم ذلك العمل الشاق؛ انتهازًا لفرصة الأجر وكرم الخلق في مساعدة الضعيف، مع ما به من النَّصَبِ والجوع وشدة الإعياء.

وتأمل هذه الأفعال (تَذُودَانِ - لا نَسْقِي - فَسَقَى لَهُمَا)؛ لترى أنها قد جُرِّدت من مفاعيلها؛ وذلك بغرض أن تتوفَّر العناية على إثبات الفعل للفاعل، وتَخْلُصُ له، وتنصرف بجملتها إليه، وبخاصة أن المفاعيل هنا معلومة مقصودة.

يقول شيخ البلاغة: "وإن أردت أن تزداد تبيُّنًا لهذا الأصل، أعنى: وجوب أن تُسْقطَ المفعول؛ لتتوفَّر العنايةُ على إثبات الفعل لفاعله، ولا يدخلها شوبٌ، فانظر إلى قوله — تعالى - : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِير، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ ففيها حذف مفعول فى أربعة مواضع، إذ المعنى: (وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ) أغنامهم أو مواشيهم، و(امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ) غَنَمَهما، و(قَالَتَا لا نَسْقِي) غَنَمَنا، (فَسَقَى لَهُمَا) غَنَمَهما، ثم إنه لا يخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كُلِّه إلا أن يُتْرَك ذِكْرُه، ويُؤْتى بالفعل مطلقًا، وما ذاك إلا أن الغرض فى أن يُعْلَم أنه كان من الناس فى تلك الحال سَقْىٌ، ومن المرأتين ذَوْدٌ، وأنهما قالتا: لا يكون منَّا سَقْىٌ حتَّى يُصْدِرَ الرعاءُ، وأنه كان من موسى — عليه السلام — من بعد ذلك سقْىٌ، فأمَّا ما كان المسْقِىُّ؟ أغنمًا أم إبلًا أم غير ذلك، فخارج عن الغرض ، ومُوهِمٌ خِلَافَه، وذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما، جاز أن يكون لم ينكر الذَّوْدَ من حيث هو ذَوْدٌ، بل من حيث هو ذود غنم، حتَّى لو كان مكان الغنم إبلٌ لم يُنكِر الذَّوْدَ...، فاعرفه تعْلَم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الرَّوعة والحُسْنِ ما وجدت، إلا لأن فى حذفه وتَرْكِ ذِكْرِه فائدةً جليلةً، وأن الغرض لا يصحُّ إلا على تركه"[1].

وتأمل حرف العطف فى قوله: (ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ)، وما يفيده من الترتيب والتراخى، وهى لحظات التقاط الأنفاس بعد جهد مزاحمة الرعاة وسَقْى المواشى والاطمئنان على سَيْرِ المرأتين عائدتين إلى أبيهما قبل صَدَرِ الرُّعاء، وقوله: (تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ) يشير إلى أنه كان قبل السَّقْى تحت الظِّلِّ، ويبدو أن الظِّل المقصود هنا هو ظِلُّ شجرة؛ لأن مياه الآبار والعيون غالبًا ما تَنْبُت بجوارها الأشجار، ثمَّ إنَّ تَوَلِّيهِ إلى الظِّلِّ يشير إلى أن الوقت حينئذ كان شديد الحرِّ، ومن هنا تأتى فائدة الظِّلال فهى مستراح الناس وقت

(١) دلائل الإعجاز، صـ١٦١، ١٦٢.

التعب والإرهاق، وهى وقايتهم من حرِّ الشمس ووهجها، ففيها يلتقطون أنفاسهم، ويريحون أبدانهم، ويستعيدون نشاطهم، ومنها ينطلقون لتقديم العون لمحتاجيه، وإليها يعودون ليدبروا أمورهم، ولا يخفى ما بين الورود والصَّدَرِ من طباق يبرز الكلام فى صورة جلية مؤكَّدة.

وتأمل هذا الدعاء الذى توجه به موسى — عليه السلام — لربه: (فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)، فالفاء تفيد التعقيب بلا مهلة، فقد أعقب إيواءَه إلى الظِّلِّ مناجاته ربّه وأكَّد الافتقار باللام دون إلى، فقال: (لِمَا أَنزَلْتَ)، ولم يقل: إلى ما أنزلت، ولعله حذف العائد؛ اختصارًا لما به من الإعياء، والجار والمجرور متعلِّق بـ (فَقِير)، وفى لفظ الإنزال إشارة إلى أن الرزق والخير من عند الله ولو جرى على أيدى البشر، وفى تنكير (خَيْر)؛ إشارة إلى حاجته إلى خير ما، يقول ابن عاشور: "لما استراح من مشقة المَتْح والسَّقْي لماشية المرأتين والاقتحام بها في عدد الرِّعَاء العديد، ووجد برد الظِّلِّ تذكر بهذه النعمة نعمًا سابقة أسداها الله إليه من نجاته من القتل وإيتائه الحكمة والعلم، وتخليصه من تبعة قتل القبطي، وإيصاله إلى أرض معمورة بأُمَّة عظيمة بعد أن قطع فيافي ومفازات، تَذَكَّرَ جميع ذلك وهو في نعمة برد الظِّل والراحة من التَّعب فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء"[1].

والمؤمن عندما يلتقط أنفاسه فى ظِلٍّ بَعْدَ جهدٍ ومَشقَّة وخوف ومطاردة يسارع باللجوء إلى الله — تعالى — يثنى عليه ويستدر رحمته ويستنزل خيره، وهكذا فعل محمد — صلى الله عليه وسلم — عندما ذهب إلى الطائف فاستهزأت به ثقيف وأغروا به صبيانهم وسفهاءهم يرجمونه بالحجارة، فغادرهم مُنْهَكًا واستراح إلى ظِلِّ بستان لابنى ربيعة وأثنى على ربه ودعاه[2]، وموسى — عليه السلام — نادى فى الظِّلِّ ربه المنعم بصفة الربوبية، وفى حذف أداة النداء إشعار بمدى قربه من ربه – تعالى – ، والغرض من الخبر فى قوله: (إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) إظهار التَّخَشُّع والضعف والحاجة، وتأكيده منظور فيه إلى حال النفس الراجية، ويدل على مدى انفعالها بهذا الرجاء، وتأكيدها لهذا الدعاء[3].

يقول الشيخ سيد قطب: "وما نكاد نستغرق مع موسى – عليه السّلام – في مشهد المناجاة حتى يُعجِّلُ السياقُ بمشهد الفرج، مُعَقِّبًا في التعبير بالفاء، كأنما السماء تسارع فتستجيب للقلب الضارع الغريب، (فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ: إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا)[4].

---

(١) التحرير والتنوير، جـ٢٠، صـ٤٠.

(٢) ينظر: السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون، لبرهان الدين الحلبى، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ، جـ٢، صـ٥٣.

(٣) ينظر: خصائص التراكيب للدكتور/ محمد أبى موسى، صـ٥٩.

(٤) فى ظلال القرآن، جـ٥، صـ٢٦٨٦، والآية رقم ٢٥ من سورة القصص.

– الظِّلُّ فى مقابلة الحرور.

* قال الله – تعالى –: (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاء وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ)[1].

يشير قوله – تعالى –: (وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ) إلى أهمية الظِّلِّ كنعمة من نعم الله – تعالى – على عباده، حيث ذكره مع نِعَمٍ (البصر، والنور، والحياة) فى سياق ضرب الأمثال لحال المؤمنين والكافرين.

والآيات "طعن على الكفرة وتمثيل، فالأعمى: الكافر، والبصيْر: المؤمن،... والظلمات والنور، والظل والحرور: تمثيل للحق والباطل، وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب، والأحياء والأموات: تمثيل لمن دخل في الإسلام ومن لم يدخل فيه"[2]. ولنبدأ بما بدأت به الآيات، وهو قوله – تعالى –: (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)، فالأعمى مستعار للكافر بجامع عدم الإدراك فى كل، والبصير مستعار للمؤمن بجامع الإدراك فى كل، وشتان بين المتناقضين، فالبُعد بين الكافر والمؤمن كالبُعدِ بين من سُلب حاسة البصر ومن أُوتى ملكة البصر. ثم تأمل قوله – تعالى –: (وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ)، فقد استعيرت الظلمات للكفر، أو للباطل بجامع الضلال فى كل، واستعير النور للإيمان، أو للحق بجامع الهداية فى كل، وشتان بين المتناقضين، فالبُعد بين الكفر والإيمان كالبُعدِ بين ظلمات لا يُستدل فيها على معلم لطريق، ونُورٍ تشع فى ضوئه الهداية. والسرُّ فى تقديم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه فى الآيتين: الأولى والثانية مرجعه إلى الغرض الأهم من هذا التشبيه وهو تفظيع حال الكافر وكفره ثم الانتقال إلى حُسْنِ حال ضِدِّه[3].

ولعلك أيها القارئ الكريم تسأل عن سرِّ الإتيان فى جانب الظلمات بصيغة الجمع (الظُّلُمَاتُ)، وفى جانب النور بصيغة الإفراد (النُّور)، والجواب على هذا السؤال مرجعه إلى تعدد فنون الباطل، واتحاد الحق.

وتأمل قوله – تعالى –: (وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ)، فقد استُعِير الظِّلُّ للثواب بجامع الراحة فى كل، واستُعِير الحرور للعقاب بجامع التعب فى كل، وشتان بين الثواب والعقاب، فمآل المؤمن يُشْبه حال الظِّلِّ

---

(١) فاطر: ١٩ – ٢٢.

(٢) تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق/ صدقي محمد جميل دار الفكر، بيروت ١٤٢٠هـ، جـ٩، صـ٢٥، وينظر: الكشاف لجار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧ هـ، جـ٣، صـ٦٠٨.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، جـ٢٢، صـ١٤٨.

تطمئن فيه المشاعر، وتصدر فيه الأعمال عن تبصُّر وتريث وإتقان، والظِّلُّ مكان نَعيمٍ في عرف السامعين الأولين، وهم العرب أهل البلاد الحارة التي تتطلب الظِّلَّ للنعيم غالبًا، ومآل الكافر يشبه الحَرُور تضطرب فيه النفوس ولا تتمكن معه القوى من التأمل والتَّبصُّر وتصدر فيه الآراء والمساعي عَجِلَة مُتفككة؛ لأن الحرور مُؤلم ومُعذِّب[1]. ومما يدل على أهمية الظل في هذا السياق أن بعض المفسرين ذكر أن المراد بالظِّلِّ: الجنة، والمراد بالحرور: النار، فعلى هذا الرأى يكون القرآن قد عَبَّر عن الجنة التي هي أقصى غايات النعيم بالظِّلِّ، مما يدل على أهميته وقيمته.[2]

ولأهميته كذلك قدمه النظم القرآني على الحرور، ولم يُؤخِّرْه كما في المَثَلين السابقين الذَيْن قُدِّم فيهما مثل الكافر (الأعمى)، ومثل الكفر (الظلمات)، ولا يخفى أن من دواعي تقديم الظِّلِّ مراعاة الفاصلة "وفواصل القرآن من متممات فصاحته، فلها حظ من الإعجاز"[3].

وتبدو دقة التعبير القرآني في مقابلة الظِّلِّ بالحَرُور، دون الحَرّ؛ فإلى جانب مناسبة لفظ الحرور لفواصل الآيات، نجده أكثر ملاءمة للمعنى؛ لأن الْحَرُورَ بصيغته اللغوية يدل على شدّة الحرِّ، فناسب ذلك مقابلته بالظِّلِّ الذي هو شدة اعتدال الجو، وكما أن ظلَّ الشمس لا يكون إلا نهارًا فكذلك الحَرُور، قال الأخفش: "والحَرُور لا يكون إلا مع شمس النَّهار، والسموم يكون بالليل"[4]

وتأمل قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاء وَلا الأَمْوَاتُ﴾، فقد استعار الأحياء للمؤمنين بجامع الإدراك والاستجابة في كلّ، واستعار الأموات للكافرين بجامع عدم الإدراك والاستجابة في كل، فلا يتساوى المؤمنون أحياء القلوب والنفوس والمشاعر، والكافرون أموات القلوب والحواس والمشاعر، كما جاء تشبيههم بالأموات في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُور﴾، فقوله: (مَّن فِي الْقُبُور) كناية عن الموتى، وقد شُبِّه الكافرون بالموتى لعدم استجابتهم لنداء الإيمان.

ومما يلفت النظر في هذه الآيات تكرار حرف النفي (لا) بين الظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء الأموات، ولم يُكرَّر بين الأعمى والبصير؛ وذلك لأن التكرار للتأكيد، والمنافاة بين الظلمة والنور،

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ٢٢، صـ١٤٨.

(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق/ أحمد فريد، الطبعة : الأولى١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م، دار الكتب العلمية، لبنان، جـ٣، صـ٧٥، معاني القرآن لأبي زكريا الفراء، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي، وآخرين، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، جـ٢، صـ٣٦٩.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ٢٢، صـ١٤٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، ت/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة/ الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، دار الكتب المصرية ، القاهرة، جـ١٤، صـ٣٣٩.

والظل والحرور، منافاة تضادّ، أما الأعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيرًا وهو بعينه يصير أعمى، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف، فلما كانت المنافاة هناك أتم، أكّد بالتكرار، وأما الأحياء والأموات، وإن كانوا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون حيًّا فيصير ميتا، لكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير، كما أن الأعمى والبصير يشتركان في إدراك ما، ولا كذلك الحي والميت، كيف والميت يخالف الحي في الحقيقة لا في الوصف على ما تبين في الحكمة الإلهية[1].

وقد سلكت الآيات سبيلًا بديعًا فى استخدام أدوات العطف، يقول الزمخشرى: "فإن قلت: هل من فرق بين هذه الواوات؟ قلت: بعضها ضمت شفعًا إلى شفع ، وبعضها وترًا إلى وتر"[2]، وبيان ذلك أن كلًّا من الواوين الذين في قوله: (وَلا الظُّلُمَاتُ)، وقوله: (وَلا الظِّلُّ) عاطف جملة على جملة، وعاطف تشبهات ثلاثة كُلٌّ تشبيه منها يجمع الفريقين، والتقدير: ولا تستوي الظلمات والنور، ولا يستوي الظل والحرور، وقد صرح بالمُقَدَّر أخيرًا في قوله: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ)، وأما الواوات الثلاثة في قوله: (وَالْبَصِيرُ)، (وَلا النُّورُ)، (وَلا الْحَرُورُ)، فكلُّ واو عاطفٌ مفرد على مفرد، فهي ستة تشبيهات موزعة على كل فريق، فـ (الْبَصِيرُ) عُطِف على (الْأَعْمَى)، و(النُّورُ) عُطِف على (الظُّلُمَات)، و(الْحَرُورُ) عُطِف على (الظِّلّ)، ولذلك أعيد حرف النفي[3].

وقد أدَّى توالى الطباق بين (الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)، و(الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ)، و(الظِّلُّ والْحَرُور)، و(الأَحْيَاء وَالأَمْوَاتُ) وكلها أسماء، دوره فى إيضاح المعنى وتأكيده، وبيان الفرق الشاسع بين فريقى الإيمان والكفر، وهيّأ للعقول أن تُقارن بين: (الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، والظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ، والظِّلُّ والْحَرُور، والأَحْيَاء وَالأَمْوَاتُ)، فلا تملك إلا أن تُسَلِّمَ بعدم تساويها، وبما أن هذه الأمور لا تتساوى فى نظر ذى عقل فكذلك الأمر فى عدم تساوى (المؤمن والكافر، والكفر والإيمان، والثواب والعقاب، والمؤمنين والكافرين)، ومن هنا ينشط أصحاب العقول فى اختيار النهج السَّوِىِّ والتزامه.

وكذلك طباق السلب فى قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُور)، حيث أبرز الطباقُ هذه الحقيقة واضحة جليَّة، فمشيئة الله تعالى لا قيد لها ولا مانع، فهو سبحانه يُسْمِعُ ويهدى من يشاء، أمَّا مشيئة الرسول صلى الله عليه وسلم فمقيدة بمشيئة الله تعالى فكما لا يستطيع إسماع

(١) ينظرمفاتيح الغيب للإمام محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، جـ٢٦، صـ٢٣٣.

(٢) الكشاف: جـ٣، صـ٦٠٣.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، جـ٢٢، صـ١٤٩.

من فى القبور كذلك لا يستطيع هداية من أحبَّ ما لم يوافق مشيئة الله تعالى وقد اشتملت الآيات على ألوان من القيم الإيقاعية الناتجة عن الفواصل المنتهية بحرف الراء المسبوق بالمدِّ إلى جانب تكرار حرف النفى (لا)، وأيضًا تتابع الطباق مما أحدث وقعًا واضحًا فى السمع.

ثانيًا: خصائص ظِلِّ الرهبة والتعذيب.

– نتق الجبل كأنه ظُلَّة.

ومن مجىء الظِّلِّ فى مقام النقمة والترهيب قوله – تعالى – فى شأن بنى إسرائيل: (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[1].

فظِلُّ الترهيب فى الآية هو ظِلُّ الجبل الذى رُفع فوق بنى إسرائيل؛ ترهيبًا لهم وتخويفًا حتى بدا كالسحابة فى التظليل، وصاروا من تحته فزعين؛ خشية أن يقع عليهم.

جاء فى كتب التفسير، أن موسى – عليه السلام – أتى قومه بما أنزله الله – عز وجل – عليه فقال: هذا كتاب الله، أتقبلونه بما فيه؟ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم وما نهاكم، قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة، وحدودها خفيفة قبلناها، قال: اقبلوها بما فيها، قالوا: لا حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها؟ فراجعوا موسى مرارًا، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء، حتى إذا كان بين رءوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي – عز وجل –؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها، لأرمينكم بهذا الجبل، فلما نظروا إلى الجبل خرَّ كل رجلٍ ساجدًا على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فَرَقًا من أن يسقط[2].

فظلُّ الجبل المرفوع ظِلُّ ترهيب وتخويف لمن عَتَا عن أمر ربه وتجبَّر، وأول ما يطالعنا فى هذه الآية الإيجاز بالحذف فى (وَإِذْ نَتَقْنَا) فهو على إضمار: اذكر، أو ذَكِّرْهم، وأيضًا: (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم)، فهو على إرادة القول، أى : وقلنا خذوا ما آتيناكم، أو قائلين: خذوا ما آتيناكم.

ونَتْقُ الجبل: قَلْعُه[3]، وورد الرَّفْعُ فى قوله – تعالى –: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ..)[4]، وقوله: (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطور بِمِيثَاقِهِمْ ..)[5]

---

(١) الأعراف: ١٧١.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير، جـ٣، صـ٤٩٩، ٥٠٠.

(٣) النَّتْقُ: الزَّعْزَعَةُ، والهَزُّ، والجَذْبُ، والنَّفْضُ، وَنَتَقَ الشَّيْءَ يَنْتُقُهُ نَتْقًا: جَذَبَهُ واقْتَلَعَهُ . لسان العرب مادة (نتق)، جـ٦، صـ٤٣٣٦.

(٤) البقرة: ٦٣.

(٥) النساء: ١٥٤.

و(النَّتْقُ) يختلف عن (الرَّفْعِ)؛ فالجبل رَاسٍ في الأرض، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يُرفع إلى عملية نزع واقتلاع من الأرض، ثم يأتي من بعد ذلك الرفع، و(نَتَقْنَا) تعني: نَزَعْنَا الجبل من مكان إرسائه؛ حتى نرفعه، وقد رفعه الله؛ ليجعل منه ظُلَّة عليهم، أي أن هناكَ ثلاث عمليات: نَتْقٌ، أي: نَزْعٌ وخَلْعٌ، ثم رَفْعٌ، ثم جَعَلَه – سبحانه – ظُلَّةً لهم، ... وكان تظليل الغمام رحمة لهم من قبل، فصار تظليل الجبل ترهيبًا لهم وتهديدًا.

وتأمل إسناد الفعل: نَتَقَ إلى نون العظمة، وما يفيده من الترهيب والتعظيم، فهو نَتْقٌ عظيم تتناسب فيه عظمة فاعل النَّتْق مع عِظَمِ المَنْتُوقِ، وعُرِّف (الْجَبَلَ)؛ لمعرفتهم به، فهو جبل الطور في برية سيناء، وعَبَّر النظم به هنا دون الطور كما في البقرة والنساء؛ لما يفيده لفظ (الجبل) من الصعوبة والشدة، المتناسبة مع لفظ (نَتَقْنَا)، فالجبل: أكبر وأهم من الطور من حيث التكوين، والنَّتْقُ: أشد وأقوى من الرفع، وقد ذُكِر الجبل هنا؛ لأنه أعظم ويحتاج للزعزعة والاقتلاع. ثم تأمّل التشبيه: (كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ)، وما يدل عليه من ارتفاع الجبل حتى صار كأنه ظُلَّةٌ، وأتى النظم بكأن دون الكاف هنا لشدة الشبه بين الجبل حال ارتفاعه والظُّلَّةِ، فالظُّلَّةُ: ما أظَلَّ من سقيفة أو سحاب، وينبغي أن يُحمل التشبيه على أنه ظُلَّةٌ مخصوصة؛ لأنه إذا كان كُلُّ ما أظَلَّ يُسَمَّى ظُلَّة فالجبل فوقهم صار ظُلَّةً، وإذا صار ظُلَّةً فكيف يُشَبَّهُ بِظُلَّة؟ فالمعنى: – واللّه أعلم – كأن الجبل حَالَةَ ارتفاعه عليهم ظُلَّةٌ من الغمام، وهي الظُّلَّةُ التي ليست تحتها عُمُد، بل إمساكها بالقدرة الإلهية، وإن كانت أجرامًا بخلاف الظُّلَّة الأرضية فإنها لا تكون إلا على عُمُد، فلما كانت هذه الظُّلَّةُ الأرضية فوقهم بلا عُمُد شُبِّهَت بِظُلَّةِ الغمام التي ليست بِعُمُد، وقيل: اعتاد البشر هذه الأجرام الأرضية ظُلَلًا إذ كانت على عُمُد، فلما كان الجبل مرتفعًا على غير عُمُدٍ قيل: كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، أي: كأنه على عُمُدٍ[1]. وتأمل مدى ما أصاب بني إسرائيل من خوف وهلع عندما رأوا الجبل فوقهم ظُلَّةً، لقد تيقنوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ إن لم يسمعوا ويطيعوا؛ ولذا خروا ساجدين مطيعين عينٌ في التراب وعين ترقب الطور، فعفا الله عنهم، وفرَّج كربهم.

وتأمل الأمر في قوله: (خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وما يُفيدُه من الإلزام والتكليف، أي: خذوا ما آتيناكم من الكتاب بجِدٍّ وعزيمة، واحفظوه، وفكِّرُوا فيه، واعملوا به، لكي تتقوا المعاصي فتكتب لكم النجاة في الدارين، وتنتظموا في سلك المتقين.

ولا يخفى ما في الآية من إيجاز بالقصر، حيث عرضت ذلك الموقف الرهيب في حياة بني إسرائيل في كلمات قليلة، وعبارات موجزة.

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان، جـ٥، صـ٢١٧.

– عذاب يوم الظُّلَّة.

ومن استعمال الظِّلِّ فى مقام الترهيب والتعذيب قوله – سبحانه – فى مآل قوم شعيب – عليه السلام –: (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[1].

تصور الآية الكريمة نهاية قوم شعيب – عليه السلام – فقد "أقبلت إليهم سحابة أظلَّتْهم، فجعلوا ينطلقون إليها يَستظِلُّون بظِلِّها من الحَرِّ، فلما اجتمعوا كلُّهم تحتها أرسل الله – تعالى – عليهم منها شررًا من نار، ولهبًا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم"[2].

"وقد ذكر الله – تعالى – صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق: ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: (لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)[3]، فأرجفُوا بنبي الله ومن اتَّبَعَه، فأخذتهم الرجفة، وفي سورة هود قال: (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ)[4]؛ وذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم: (أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)[5]، قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ)، وهاهنا قالوا: (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)[6] على وجه التَّعنُّتِ والعناد، فناسب أن يَحقَّ عليهم ما استبعدوا وقوعه (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)"[7]، وباب المناسبات من أدق فنون البلاغة وأخفاها.

والناظر فى هذه الآية يرى أنها عطفت التعذيب على التكذيب بالفاء التى تفيد التعقيب[8]: (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ)، فكأنهم لما سارعوا إلى تكذيب رسولهم سارع الله – عز وجل – إلى تعذيبهم، فإتيان النظم الكريم بالفاء للربط بين تكذيبهم وتعذيبهم يُنُمُّ عن التعجيل بنهايتهم دون

---

(١) الشعراء: ١٨٩.

(٢) تفسير ابن كثير، جـ٦، صـ١٦١.

(٣) الأعراف: ٨٨.

(٤) هود: ٩٤.

(٥) هود: ٨٧.

(٦) الشعراء: ١٨٧.

(٧) تفسير ابن كثير، جـ٦، صـ١٦١.

(٨) ينظر: الجنى الدانى فى حرف المعانى للمرادى، ت/ د. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، صـ٦١

تفصيل ولا تطويل، يقول البقاعى: "ولما كان محط كلامهم كله على تكذيبهم له من غير قدح في قدرة الخالق، سبب العذاب عن تكذيبهم فقال : (فَكَذَّبُوهُ) أي: استمروا على تكذيبه (فَأَخَذَهُمْ)"[1].

وفى تعريف المسند إليه بالإضافة: (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) تعظيم لشأن المضاف، وأنه عذاب رهيب عظيم، أتى عليهم فأسكت أصواتهم وأسكن أجسادهم.

والظُّلَّةُ: سَحَابَةُ تُظِلُّ، وأكثر ما يُقَالُ: فيما يُسْتَوخَمُ وَيُكْرَهُ [2]، وفى إضافة المسند إليه (عَذَاب) إلى يَوْمِ الظُّلَّةِ دون الظُّلَّةِ نَفْسِهَا كأن يُقَال: فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ الظُّلَّةِ، إيحاء بأنهم أُصيبوا يوم الظُّلَّةِ بعذاب آخر غير عذاب الظُّلَّةِ، وفي ترك بيانه تعظيم لأمره[3]، وبيانُه ما جاء فى الأعراف وهود، وهو: الرَّجْفُ، والصَّيْحَةُ، لقد اجتمع على قوم شعيب ذلك كلُّه، أصابهم عذاب يوم الظُّلَّةِ، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفلَ منهم، فزهقت أرواحهم، وخمدت أجسامهم.

ثم تأمل التأكيد فى قوله – تعالى –: (إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وكأن قوله: (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) قد تضمن سؤالا فحواه: ما حقيقة عذاب يوم الظُّلَّةِ؟ وما صفته؟ وبأى شيء كان؟ أبالرجفة أم بالصيحة أم بالظُّلَّةِ؟ فكانت الجملة الثانية: (إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) كالجواب عن هذا السؤال المنبعث من الجملة الأولى، ولذا جاء مؤكدًا بـــ(إنَّ)؛ ليزيل التردد فى السؤال، ويبين أَنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ في الشِّدَّة والهول، وفظاعة ما وقع فيه من الطَّامة والدَّاهية التَّامَّة.

وتأمل تعريف المسند إليه (عَذَابَ) بإضافته إلى (يَوْمٍ عَظِيمٍ)، وما تفيده الإضافة من التهويل والتفخيم والتعظيم؛ "لأن في معتاد العرب أن يُطلَق اليومُ على يَومِ نَصْرِ فريق وانهزام فريق من المحاربين، فيكون اليومُ نكالا على المنهزمين؛ إذ يكثر فيهم القتل والأسر، ويُسامُ المغلوبُ سوء العذاب، فَذِكْرُ اليوم يثير من الخيال مخاوف مألوفة؛ ولذلك قال الله تعالى: (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) ولم يقل: عَذَابُ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابًا عَظِيمًا...، وبهذا الاعتبار حَسُنَ جَعْل إضافة العذاب إلى اليوم العظيم كناية عن عِظَم ذلك العذاب؛ لأن عَظَمَة اليوم العظيم تستلزم عِظَم ما يقع فيه عرفًا"[4]

ولا يخفى ما فى وصف اليوم بـــ(عَظِيمٍ) من إشارة إلى شدَّة ما وقع فيه من العذاب، كما لا يخفى ما فى تكرار كلمتى: (عَذَاب) و (يَوْمٍ) من تأكيد على هول ما أصاب القوم، وفظاعة ما هلكوا به.

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، جـــ٥، صـــ٣٨٩.

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، مادة (ظلل)، صـــ٣١٤.

(٣) ينظر: حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، جـــ٧، صـــ٢٥، وروح المعانى للألوسى، جـــ١٠، صـــ١١٨.

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور، جـــ٦، صـــ٤٠.

والمتأمل فى نظم الآية الكريمة يجدها قد عبَّرت عن المعانى الكثيرة بكلمات قليلة فى صورة رائعة من الإيجاز القرآنى، حيث عبرت الآية عن تكذيب قوم شعيب لنبيهم — عليه السلام — وعن تعذيبهم، وعن زمان العذاب، وصفته، عبَّرت عن كل ذلك بكلمات معدودات، فسبحان من هذا كلامه!!

– الموج الذى يُشْبِهُ الظُّلَل.

ومن استعمال الظِّلِّ فى مقام الترهيب قوله – تعالى –: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[1]

فالآيتان الكريمتان تتحدثان عن آية عظيمة من آيات الله – تعالى – ، وهى جريان الفلك فى البحر، ثم ما يمكن أن يحدث للفُلْك وراكبيها من موقف عصيب حين يموج البحر ويهيج حتى يكون الموج فوق الرءوس كالظُّلَلِ هولًا ورهبة. وأول ما يطالعنا فى هاتين الآيتين هو الاستفهام فى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾، فالهمزة دخلت على حرف النفى (لم) الداخل على فعل الرؤية (تَرَ)، ويفيد هذا الأسلوب: التقرير، والتعجيب، والتنبيه، والتذكير بما فى حيِّز الرؤية، سواء كان معلومًا للمخاطب أم غير معلوم، وما فى حيّز الرؤية هنا هو جريان الفُلْك فى البحر، وهو أمر معلوم مشاهد لا تنكره الأبصار، وخُصَّ التذكير بتلك النعمة؛ تنبيهًا على أنها لكثرة الإلف لها أعرض الناس عن تأملها، ولذا فالاستفهام فيه حثٌّ على تدبُّرها؛ لأنها من أعظم النِّعَم التى أنعم الله بها على عباده، ففى جريان السُّفُن بالناس، ونقلها لهم من مكان إلى مكان، وحمايتهم من الغرق، وسَوْق الريح لها ذهابًا وإيَّابًا، وحملها لأثقال الناس وأمتعتهم مما يعجزون عن نقل مثله في البر، نعمة من أعظم النعم، وأولاها بالنظر، والتفكر والاستلال على وحدانية القادر وعظمته – عز وجل –. والخطاب للرسول — صلى الله عليه وسلم — ولكل من يتأتى خطابه، وفى الحقيقة أن السفن تجرى على وجه الماء، لكن النظم القرآنى عبر بالظرفية: (تَجْرِي فِي الْبَحْرِ)؛ "إشارة إلى أنه ليس لها من ذاتها إلا الرسوب في الماء لكثافتها ولطافته"[2]، وعبَّر عن الفعل بأثره فقال: (بِنِعْمَةِ اللَّهِ)؛ لأنه أحبُّ، أي: تجرى برحمة الملك الأعلى المحيط إحسانُه بكم، وفى إضافة النعمة إلى لفظ الجلالة إشعار بعظمة النعمة؛ لأنها إحسان من عظيم. وجملة: (لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ) تعليل للحث على رؤية الفلك وهى تجرى بالريح على وجه الماء، أي: ليريكم من عجائب قدرته ودلائله التي تدلكم على أنه الحق، فما ترون من الأحمال الثقال على وجه الماء الذي ترسب فيه الإبرة فما دونها،

---

(١) لقمان: ٣١، ٣٢.

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى، دار الكتب العلمية، بيروت – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م، جـ٦، صـ٣٣.

إنما هو بتمام قدرته وفضل نعمته – تبارك وتعالى –. وتأمل التوكيد فى قوله – تعالى –: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) حيث جاء على خلاف مقتضى الظاهر من حال المخاطب، "وعندما تكون الجملة السابقة متضمنة إشارات أو إيماءات تثير فى النفس المتلقية تساؤلا فتسعفها الجملة الثانية بما يزيل التردد ويجيب عن هذا الهمس، فيدخل قدر من التوكيد فى بناء العبارة؛ ليواجه هذا التردد"[1]، ومن ذلك هذه الآية، فقد أثارت جملة الاستفهام فى النفس المتلقية تساؤلًا فَحْواه: كيف لم يهتد المشركون بدلالة جريان الفلك فى البحر على توحيد الله وعظيم قدرته هل لأنهم غافلون أم لأنهم جاحدون؟ فجاء الجواب مُؤكَّدًا ليزيل هذا التردد، ويُبَيِّن أن الذى ينتفع بدلالة الآيات على مدلولها هو كُلُّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وفى هذا ثناء على المنتفع بدلالة الآيات، وتعريض بالذين لم ينتفعوا بدلالتها[2]. واسم الإشارة وما فيه من البُعْدِ يشير إلى عظمة جريان الفلك فى البحر، وأنه أمر هائل بديع لا تستطيعه إلا قدرة القادر العظيم. والصَّبَّار: مبالغة في الموصوف بالصبر، والشَّكُورُ: مبالغة فى الموصوف بالشكر، وهاتان الصفتان: (صَبَّار) و(شَكُور) كناية عن المؤمن؛ لأنهما عُمدَتا الإيمان؛ فالإيمان وجميع ما يتوقف عليه إما ترك للمألوف غالبًا وهو بالصَّبر، أو فعل لما يُتَقَرَّب به وهو شُكْر، ولذا ورد أن الإيمان نصفان: نِصْفٌ صَبْرٌ، ونِصْفٌ شُكْرٌ، ووجه إيثار خُلُقَي الصبر والشكر هنا؛ لأنهما أنسب بمقام السير في البحر، إذ راكب البحر بين خطر وسلامة، وهما مظهر الصبر والشكر[3].فإن قال قائل: كيف خصَّ هذه الدلالة بأنها دلالة للصَّبَّار الشَّكُور دون سائر الصفات؟ "قيل: لأن الصبر والشكر من أفعال ذوى الحجا والعقول، فأخبر أن فى ذلك لآيات لكل ذى عقل؛ لأن الآيات جعلها الله عِبَرًا لذوى العقول والتمييز"[4].وتأمل الموقف العصيب الذى قد يتعرض له من يركب البحر: (وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)، والتعبير بـ(إذا) فيه إشارة إلى أن هذا الموقف العصيب كائن لا محالة؛ لأن (إذا) تستعمل فى الشرط المقطوع بوقوعه، أو الشرط الذى يُظن ظنًّا قويًّا وقوعه[5]، والظُّلَلُ: جمع ظُلَّةٍ، والظُّلَّة: هى السَّحابة التى ترتفع فتغطِّى ما تحتها، وشُبِّه الموج بها لكبرها وارتفاعها وسوادها، والتشبيه يدل على شدة ارتفاع الموج، وإحاطته بهم كأنه يظللهم.ويلاحظ أن النظم الكريم أتى بلفظ الموج مُفرَدًا، وشَبَّهَه بلفظ الظُّلَلِ وهو جمع، إمَّا لأن

(١) خصائص التراكيب للدكتور/ محمد أبى موسى، ط/ الثانية، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، مكتبة وهبه، القاهرة، صـ٥١.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب للدكتور/ محمد أبى موسى، ط/ الثانية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، مكتبة وهبه، القاهرة، صـ٣٠٨.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، جـ٢١، صـ١٣٠.

(٤) جامع البيان للطبرى، جـ٢٠، صـ١٥٦.

(٥) ينظر: الإيضاح للخطيب القزوينى، جـ١، صـ١٨٦، والمطول للتفتازانى، صـ١٥٤.

الموج بمعنى: الجمع، وإنما لم يُجمع لأنه مصدر، وإمَّا لأنه لشدة اضطرابه وإتيانه شيئًا في إثر شيء متتابعًا يركب بعضه بعضًا كأنه شيء واحد ، وأصله من الحركة والازدحام[1]. وتأمل تنكير الموج وما يفيده من التعظيم والتكثير، إنه موج كالظُّلَلِ فى ظلمته ورهبته وعِظَمِه وهذا الموقف من أصعب المواقف التى قد تمر بالإنسان، فهو فى عرض البحر، والموت يأتيه من كل مكان، ولا مُنقِذ إلا القادر - عز وجل — فمن البدهى والحال هكذا أن يجأر الإنسان مُتوجِّهًا بالدعاء الخالص إلى الله — تعالى — أن يخلِّصه من غرق محتوم.وتأمل قوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، فلم تكشف الآية مضمون دعائهم، إمَّا لأنه معلوم فلا داعى لذكره، فمن البَيِّن أنهم دَعَوُا الله سائلين النجاة، وإمَّا لأنهم لهول ما هم فيه من ضيق المقام وكرب الحال لم ينطقوا بمضمون الدعاء، فدلت حالُهم على مرادهم، يقول البقاعى: "واقتضى الحال في سورة الحكمة حذف ما دعوا به لتعظيم الأمر فيه لما اقتضاه من الشدائد؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب"[2].ثمَّ تأمل القيد بالحال: ﴿مُخْلِصِينَ﴾، وتقديم الجار والمجرور ﴿لَهُ﴾ على مفعول اسم الفاعل ﴿الدِّينَ﴾ وما يفيده من القصر، فالنفوس أمام هذا الخطر، والموج يغشاها كالظُّلَلِ، والفُلْكُ كالريشة الحائرة في الخِضَمِّ الهائل .. تتعرى من القوة الخادعة، وتتجرد من القدرة الموهومة، التي تَحْجُبُ عنها في ساعات الرضا حقيقة فطرتها، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالِقها، حتى إذا سقطت هذه الحوائل، وتعرت الفطرة من كل ستار، استقامت إلى ربها، واتجهت إلى بارئها، وأخلصت له الدين، ونفت كل شريك، ونبذت كل دخيل، ودعت اللّه مخلصة له الدين[3]، إنهم لا يدعون شركاءهم فى شدائدهم، إنما يدعون الله وحده، مخلصين له وحده الدين، لا يشركون به هنالك شيئًا، ولا يدعون معه أحدًا سواه، ولا يستغيثون بغيره.وتأمل الالتفات الذى خرج من ضمير الخطاب فى ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ إلى ضمير الغيبة فى ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾، والمخاطبون هم الذين إذا نجّاهم الله من هول البحر وظُلَلِ مَوجه كان منهم المقتصد والجاحد، "وكأن نقل الحديث إلى الغيبة فيه معنى التشهير بهم، وكأنه يَرْوِى قِصَّتَهم لغيرهم؛ لأن هذه الطبائع العجيبة جديرة بأن تُذَاعَ وتُرْوَى[4]. ثم فيه لطيفة أُخرى هى أنهم عندما حثّهم على النظر والتأمل فى هذه الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته كانوا فى مقام الخطاب، فلمَّا جرت بهم الفلك، وغشيهم الموج ذهبوا بعيدًا عن مقام الخطاب، فلاءم هذه الحالَ طريقُ الغَيْبة، وفي الالتفات هنا فضلا عن ذلك ما فيه من الافتنان فى الكلام والتَّصرُّف فيه؛ بنقله من أسلوب إلى أسلوب وتنشيط السامع وإيقاظه للإصغاء ...ثم

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعى ، جـ٦، صـ٣٥.

(٢) نظم الدرر للبقاعى ، جـ٦، صـ٣٥.

(٣) ينظر: فى ظلال القرآن لسيد قطب، جـ٥، صـ٢٧٩٧.

(٤) دلالا التراكيب للدكتور/ أبى موسى، صـ١٩٨.

تأمل قوله – تعالى –: (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) لقد نَزَلُوا عن تلك المرتبة التي أخلصوا فيها الدين لله، وانقسموا قسمين: فمنهم (مُّقْتَصِدٌ) وهو: مُتَكَلِّف للتوسط والميل للإقامة على الطريق المستقيم، وهو: الإخلاص في التوحيد الذي ألجأه إليه الاضطرار، وهم قليل؛ بما دل عليه التصريح بالتبعيض، ومنهم جاحد للنعمة دَلَّ عليه ترك التصريح فيه بالتبعيض.وفي الانتقال من الغيبة فى قوله: (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) إلى التكلم في قوله: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا) التفات، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: وما يجحد بآياته، ولكنه انتقل إلى التكلم؛ لِيُحْدِث إيقاظًا ولفتًا عند هذا المقطع المهم من مقاطع المعنى، لقد جحدوا بآيات الله مع عِظَمِها، ولا سيَّما بعد الاعتراف بها، ومن هنا فالانتقال إلى التكلم فيه تخويف للجاحد بمظهر العظمة التي من شأنها الانتقام.

وتأمل أثر الطباق بين البحر والبر فى بيان كُنْه الآية التى يدعو النظم الكريم إلى الاستدلال بها على وحدانية الله وقدرته، وهى جريان الفلك بالناس وأثقالهم فى البحر لا تحدوهم سوى عناية الله، ولا يدعون عندما يأتيهم الموج كالظُّلَلِ إلا الله مخلصين له الدين، فرق كبير بين برٍّ يأمنون فيه، وبحر يفزعون من أهواله، وهذا ما جَلَّاه مُحَسِّنُ الطباق.والخَتَّارُ: هو كثير الخَتْرِ، والخَتْرُ: غَدْرٌ يَخْتِرُ فيه الإنسان، أى: يَضْعُفُ؛ لاجتهاده فيه[1]، والكَفُورُ: كثير الكفر، وهاتان صيغتا مبالغة فى من يجحد بآيات الله – تعالى – وقد جاء النظم الكريم بطريق النفى والاستثناء فى التعبير عن الجاحدين بآيات الله مع عظمها والاعتراف بها عند الكُرَب، فقال: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) قاصرًا صفة الجحود على كُلِّ خَتَّارٍ كَفُورٍ بحيث لا تتعداهم إلى الصَّبَّار الشَّكُور وهو ما خُتِمَت به الآية الأولى، وجاء النظم بطريق النفى والاستثناء؛ ليؤكد هذه الحقيقة عند المقصودين بهذا الجحود، الذين ينكرون جحودهم ويرمون به من جحد بدين الآباء[2]. والبقاعى يرى أن الإتيان بصيغتى المبالغة هنا (خَتَّارٍ – كَفُورٍ)، يقابل صيغتى المبالغة فى ختام الآية الأولى (صَبَّارٍ شَكُور)، والمقابلة من أهم الأساليب التى تفصح عن الفوارق بين المتقابلين، كما بَيَّن البقاعى أيضًا "أن الآية من الاحتباك[3]: دل ذِكْرُ الْمُقْتَصِد أولًا على: (ومنهم جاحد) ثانيًا، وحَصْرُ الجحود في الكَفُور ثانيًا على حَصْر الاقتصاد في الشَّكُور"[4].

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، مادة (ختر)، صـ١٤٢.

(٢) يقول الشيخ عبد القاهر: "وأما الخبر بالنفى والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب، أو: ما هو إلا مخطئ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصًا من بعيد فقلت ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويَجِدُّ فى الإنكار أن يكون زيدًا" دلائل الإعجاز، صـ٣٣٢.

(٣) الاحتباك: "هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ويحذف من الثاني ما أثبت نظيره في الأول" خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغدادي، ت/ محمد نبيل طريفي ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ٣، صـ٢٣٦.

(٤) نظم الدرر، جـ٦، صـ٣٦.

الفصل الثانى

النظم القرآنى لِظِلِّ الآخِرَة

تحدث النظم القرآنى عن نوعين من الظِّلِّ فى الآخرة: نوعٌ يَتنعَّمُ به المؤمنون فى جنَّاتٍ عرضها السموات والأرض أُعدَّت للمتقين، ونوعٌ يتلظَّى به الكافرون فى جهنم وبئس المصير، أمّا النوع الأول وهو ظِلُّ النعيم فقد وُصِف فى النَّظْم القرآنى بعدَّة أوصاف منها: أنه ظليل كثيف، وأنه دانٍ غير بعيد، وأنه دائم لا ينقطع، وأنه ممدود لا تنسخه الشمس، وأمَّا النوع الثانى وهو ظِلُّ العذاب، فقد وُصِفَ فى النظم القرآنى أيضًا بعدَّة أوصاف، منها: أنه ليس بارد ولا كريم، وأنه ظِلٌّ ذو ثلاث شُعَب لا ظَليل ولا يغنى من اللهب، وأنه محيط بالكافرين من فوقهم ومن تحتهم، ولنتأمل النظم القرآنى فى الإبانة عن خصائص ظِلِّ الآخرة.

أولًا: خصائص ظِلِّ الجنة.

– الظل الظليل.

* يُعدُّ ظِلُّ الجنة نوعًا من أنواع النعيم، وصنفًا من صنوف التكريم التى أعدَّها الله – تعالى – لعباده المؤمنين فى دار رحمته، يَتنعَّمون به ويستروحون فيه، يقول – جلَّ شأنه –: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾[1]. لقد ورد الظِّلُّ هنا فى مقام تعداد ما سينعم الله به على الذين آمنوا وعملوا الصالحات يوم القيامة، فبدأ بنعمة إدخالهم الجنة التى يستحقونها بإيمانهم وأعمالهم الصالحة، ثم الأنهار الجارية، ثم الخلود الأبدى فى الجنة، ثم الأزواج المطهرة، وختم بالظِّلِّ الظَّليلِ. والظِّلُّ معروف وهو ما يكون مع الشمس يقول الراغب الأصفهانى: الظِّلُّ: ضدُّ الضَّحِّ، وهو أعمُّ من الفيء، فإنه يقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجنّةِ، ويقال لكلّ موضع لم تصل إليه الشّمس: ظِلٌّ، ولا يقال الفيءُ إلّا لما زال عنه الشمس، ويُعبَّر بالظِّلِّ عن العزّة والمَنَعَة، وعن الرّفاهَة، وأَظَلَّني فلانٌ: حرسني، وجعلني في ظِلِّهِ وعِزّه ومَنَاعَتِه، وظِلٌّ ظَلِيلٌ: فائض، وقوله: (وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا): كناية عن غَضَارَةِ العَيْشِ[2].والظِّلُّ: هنا كناية عن النعيم والراحة، وفيه من جهة اللفظ مع (ظَلِيلًا) جناس اشتقاق[3] يُكسب الكلام جمالًا لفظيًّا ووقعًا موسيقيًّا، يقول الرازى:

---

(١) النساء: ٥٧.

(٢) المفردات فى غريب القرآن مادة (ظلل) صـ٣١٤.

(٣) جناس الاشتقاق هو: أن يجمع الكلمتين أصل لغوىٌّ واحد مع اتفاق المعنى، ينظر: معجم البلاغة العربية للدكتور/ أحمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمى العراقى، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، جـ٢، صـ٤١٨، معجم البلاغة العربية للدكتور/ بدوى طبانة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، دار المنار، جدة، صـ٣١٠.

"واعلم أن بلاد العرب كانت في غاية الحرارة، فكان الظِّلُّ عندهم أعظم أسباب الراحة؛ ولهذا المعنى جعلوه كناية عن الراحة"[1]، ولا تمنع الكناية من إرادة المعنى الحقيقى للظِّلِّ، وأن ظِلَّ الجنة عَميقٌ كثيف، وطيِّبٌ أنيق، يقول ابن عاشور: " هو من تمام محاسن الجَنَّات؛ لأن الظِّلَّ إنما يكون مع الشمس، وذلك جمال الجنات ولذة التنعيم برؤية النور مع انفتاح حَرِّه"[2].

وتأمل وَصْفَ الظِّلِّ بصفة مشتقة من لفظه: (ظَلِيلًا)؛ تأكيدًا لمضمونه، ومبالغة فى نعت الظِّلِّ وأنه قد بلغ الغاية فى جنسه، فهو ظِلٌّ كثيف لا تنسخه الشمس، ولا يستحيل ولا ينتقل، وهو متصل لا فُروج فيه، منبسط لا ضيق معه، طَيِّبٌ لا حرَّ فيه ولا برد، إنَّه فى غاية الاعتدال، رزقنا اللَّه بتوفيقه التَّنعُّم فى الظِّلِّ الظَّلِيلِ.

وعُرِّفَ المسند إليه فى مطلع الآية بالموصولية؛ للإيماء إلى وجه بناء الخبر، فقوله: (وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ) يشير إلى أن الخبر من جنس التنعيم والإكرام، وهذا واضح فى قوله: (سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلًا)، فقد حمل المبتدأ من المعانى "ما يهيئ النفس إلى الخبر حتى لتكاد تعرفه قبل النطق به، وهذا لعمرك فنٌّ من الكلام جزيل دقيق لا يهتدى إليه إلا فَطِنٌ"[3].

وفى عطف العمل على الإيمان إشارة إلى تغاير المتعاطفين، وأن أحدهما لا يُغْنى عن الآخر فلابد للتَّنعُّم بظلال الجنة وسائر مُتَعِها من تَحَقُّق الأمرين معًا: الإيمان والعمل الصالح؛ إِذِ الْإِيمَانُ بِغَيْرِ عَمَلٍ صَالِحٍ لَا يَكْفِي لِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَإِعْدَادِهَا لِهَذَا الْجَزَاءِ العظيم، وكذلك العمل بلا إيمان كالهباء المنثور، وتنكير (جَنَّاتٍ) للتعظيم، وجمعها يشير إلى كثرتها وتنوعها بحسب استحقاقات العاملين ودرجاتهم.

وتأمل كيف جاء ذكر الجَنَّات مشفوعًا بذكر الأنهار الجارية من تحتها؟ وكيف قدَّمه النظم على سائر نُعوتها؟ يقول الزمخشرى: "وأنْزَهُ البساتين وأكرَمُهَا مَنظرًا ما كانت أشجارُه مُظلِّلة، والأنهار في خلالها مُطَّرِدَة، ولولا أن الماء الجاري من النعمة العظمى واللذة الكبرى، وأن الجِنَان والرياض وإن كانت آنق شيء وأحسنه لا تروق النواظر ولا تُبْهِج الأنفس ولا تجلب الأرْيَحِيَّة والنشاط حتى يجرى فيها الماء، وإلا كان الأنس الأعظم فائتا، والسرور الأوفر مفقودًا، وكانت كتماثيل لا أرواح فيها، وصُورٍ لا حياة لها، لَمَا جاء اللَّه - تعالى - بذكر الجَنَّات مشفوعًا بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قران

---

(١) مفاتيح الغيب، جـ١٠، صـ١٠٨.

(٢) التحرير والتنوير، جـ٤، صـ١٥٩.

(٣) خصائص التراكيب للدكتور أبى موسى، صـ١٥٠.

واحد كالشيئين لا بد لأحدهما من صاحبه، ولَمَا قدّمه على سائر نعوتها"[1]. وإسناد الجرى إلى الأنهار من الإسناد المجازى بعلاقة المكانية؛ لأن الجرى فى الحقيقة للماء، والنهرُ: مجرى الماء الفائض[2]، وفى إسناد الجرى للأنهار مبالغة فى كثرة الماء وسرعة تدفقه، وكأن النهر بمائه يجرى ، والإسناد هنا يثير فى النفس خيالًا طريفًا.

وهذا الوعد الطّيب للمؤمنين جاء بعد وعيد للكافرين بضده فى الآية السابقة فى قوله – تعالى –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[3]، وقد أتى النظم القرآنى فى آية الوعد بالسين، وفى آية الوعيد بسوف، "و(سَوْفَ) أَبْلَغُ مِنَ (السِّينِ) فِي التَّنْفِيسِ وَسِعَةِ الِاسْتِقْبَالِ فِي الْمُضَارِعِ الَّذِي تَدْخُلُ عَلَيْهِ[4]..، وَكَأَنَّهُمْ أَخَذُوا ذَلِكَ مِنْ قَاعِدَةِ دَلَالَةِ زِيَادَةِ الْمَبْنَى تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ الْمَعْنَى، فَلَمَّا كَانَتْ (سَوْفَ) أَكْثَرَ حُرُوفًا كَانَ مَعْنَاهَا فِي الِاسْتِقْبَالِ أَوْسَعَ، وَلَا يَدَ عَلَى هَذَا مِنْ نُكْتَةٍ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ جَزَاءِ أَهْلِ النَّارِ بِقَوْلِهِ: (سَوْفَ نُصْلِيهِمْ) وَعَنْ جَزَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: (سَنُدْخِلُهُمْ)، وَكَأَنَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ – تَعَالَى – بِالْفَرِيقَيْنِ يُعَجِّلُ لِأَهْلِ النَّعِيمِ نَعِيمَهُمْ وَلَا يُعَجِّلُ لِأَهْلِ الْعَذَابِ عَذَابَهُمْ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى امْتِدَادِ وَقْتِ التَّوْبَةِ فِي الدُّنْيَا"[5].

– الظِّلُّ الدائم.

* ومن الآيات التى تَذْكُر الظِّلّ نعيمًا يتمتع به أهل الجنة قوله – عز وجل –: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[6]. فالآية الكريمة تخبرنا بدوام أُكُلِ الجَنَّة وظِلِّهَا، ودوام الظِّلّ: استمراره وعدم زواله، أو هو كناية عن دوام الراحة، وحَذْفُ خَبَرِه فى الآية لدلالة مثله عليه، والتقدير: أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا كذلك، فهو من الإيجاز بالحذف. وقد وصف الله – تعالى – الجنة بثلاثة أوصاف، الأوّل : أنها تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، والثاني: أن أُكُلَها دائم لا ينقطع أبدًا بخلاف جنة الدنيا، والثالث: أن ظِلَّهَا دائم، لا ينقطع ولا يزول. والمَثَلُ فى الآية: "الصفة العجيبة، قيل: هو حقيقة من معاني المثل، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ

---

(١) الكشاف جـ١، صـ٢٥٧، ٢٥٨.

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، مادة (نهر)، صـ٥٠٦.

(٣) النساء : ٥٦.

(٤) ينظر: رصف المبانى فى شرح حروف المعانى لأحمد بن عبد النور المالقى، ت/ أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، صـ٣٩٨.

(٥) تفسير المنار، جـ ٥، صـ٣٥.

(٦) الرعد: ٣٥.

الْمَثَلُ الْأَعْلَى)[1]، وقيل: هو مستعار من المَثَل الذي هو الشبيه في حالة عجيبة أُطْلِق على الحالة العجيبة غير الشبيهة لأنها جديرة بالتشبيه بها"[2]، والمعنى: مَثَلُ الجَنَّةِ، أي : صِفتها التي هي في الغرابة كالمثل، وارتفع (مَثَلُ) على الابتداء في مذهب سيبويه ، والخبر محذوف أي : فيما قصصنا عليكم مَثَلُ الجنة، وجملة (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) تفسير لذلك المَثَل على أنه حالٌ من الضمير المحذوف من الصلة العائدِ إلى الجنة، أي: وُعِدَهَا[3].

وعن الزجاج أن الخبر محذوف وجملة (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) المذكورة صفة له، والمراد: مَثَلُ الجَنَّةِ التي وُعِدَ المتقون جَنَّةٌ تجري إلى آخره، فيكون — سبحانه – قد عَرَّفَنَا الجنة التي لم نرها بما شاهدناه من أمور الدنيا وعايناه، وعلى هذا فالتشبيه هنا تمثيلي منتزع وجهُهُ من عدة أمور من أحوال الجنان المشاهدة من جريان أنهارها وغضارة أغصانها والتفاف أفنانها ونحوه، ويكون قوله – تعالى -: (أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها) بيانًا لفضل تلك الجنان وتمييزها عن هذه الجنان المشاهدة[4].

وتأمل نظم الآية، فقد بُنِى الفعل (وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) للمفعول، وبناء الفعل للمفعول إنما يكون عند حذف الفاعل الأصلى، والواعد هنا هو الله — تبارك وتعالى — وإنما حُذِف للعلم به واشتهاره، وكذلك للمسارعة إلى ذكر أوصاف الجنة، لأن المقام مقام إطماع للمتقين، مما يستوجب المسارعة بذكر ما يُطْمِع.

وأول أوصاف الجنة أنها (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)، وإسناد الجرى إلى الأنهار من الإسناد المجازى بعلاقة المكانية؛ لأن الأنهار أمكنة للمياه، ومحل لجريانها، وليست هى التى تجرى، وإنما الجارى فى الحقيقة ماؤها، وحقيقة الإسناد: تجرى من تحتها مياه الأنهار، وتكمن بلاغة المجاز فى الآية فى أن المياه لكثرة فيضانها، وشدة جريانها، تُرَى وكأن محلها هو الذى يجرى، وكأن الجرى قد تجاوز الماء إلى مكانه، والآيات التى تتحدث عن أنهار الجنة على كثرتها كلها قد أسند فيها الجرى إلى الأنهار، لا إلى المياه لهذا السِّرِّ.

وثانى أوصاف الجنة: أن أُكُلَها دائم لا ينقطع أبدًا بخلاف جنة الدنيا، وقد عُرِّف المسند إليه هنا بالإضافة إلى ضمير الجنة، وفيه ما فيه من تعظيم وتشريف للأُكُلِ، وأنه أُكُلٌ يختلف عن أُكُلِ حدائق الدنيا وجِنَانِها، فهو دائم لا ينقطع، طيب لا تسأمه النفس ولا تمله.

---

(١) النحل: ٦٠.

(٢) التحرير والتنوير، جـ١٢، صـ١٩٦.

(٣) ينظر: البحر المحيط، جـ٦، صـ٥٩٥.

(٤) ينظر: روح المعانى للألوسى، جـ٧، صـ١٥٤.

وثالث أوصاف الجنة: أن ظِلَّها دائم مثل أُكُلِها، وقد عُرِّف المسند إليه هنا – أيضًا – بالإضافة إلى ضمير الجنة، وفيه ما فيه من تعظيم وتشريف للمسند إليه، وأنه ظِلٌّ يختلف عن ظِلِّ بساتين الدنيا وبنيانها، فهو دائم لا ينقطع، طيب لا تسأمه النفس، معتدل لا يعتريه ما يعترى ظِلَّ الدنيا من الحرِّ أو البرد، ثابت لا يصيبه التقلُّص أو المحو.

ثم تأمل تعريف المسند إليه بالإشارة فى قوله: (تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا)، وهو مشار به هنا إلى الجنة العالية الأوصاف[1]، ولام البعد فيه تشير إلى عظمة الجنة وعُلُوِّ مرتبتها وبُعْد أوصافها عن كل ما تتصف به جنان الدنيا وبساتينها؛ تنزيلًا لبعد درجة المسند إليه وعلو مرتبته منزلة بُعْدِ المسافة، وقد حُذِف مفعول (اتَّقَوا)؛ ليشمل كل ما يَحْرِمُ من هذا المآل الطيب السعيد، من كفر وإلحاد، ونفاق، ومعاص....، وغير ذلك، فالغرض من حذف المفعول هنا: التعميم.

وقد عُرِّف المسند إليه فى قوله: (وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ) بالإضافة إلى الكافرين، وفيه ما فيه من الذَّمِّ والتحقير للمسند إليه، إنه مآل الكافرين ومأواهم ونهايتهم، فلا شك أنه حقير كريه مهين، تنفر منه النفوس، وتأباه الطباع، ويتحاشاه من خشى الرحمن، وتأمل تعريف المسند (النَّارُ) وما يفيده من الحصر، فنهاية الكافرين مقصورة على النار لا غيرها، حيث لا يدخلون الجنة ولا يتمتعون بأُكُلِها أو ظلِّها أو بأى شىء منها ...

– ظِلالُ الجَنَّة تُظلِّل المؤمنين وأزواجهم.

* ومن الآيات التى تَذْكُرُ الظِّلَّ نعيمًا يتمتع به أهل الجنة قوله – عز وجل –:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ، هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ)[2].

تخبر الآيتان الكريمتان أن أهل الجنة يوم القيامة إذا ارتحلوا من موقف الحساب فنزلوا في روضات الجنات سيكونون فِي شُغُلٍ، بما يجدون أنفسهم فيه من اللذة والسرور والنعيم المقيم، والفوز العظيم، وأنهم سيكونون فرحين مسرورين بفضل الله عليهم، وأنهم وأزواجهم سيتمتعون فى ظلال الجنة، ويتكئون على سُرُرِهَا.

وقد جاء الإخبار عن حال أصحاب الجنة، قبل تحقُّقِها تنزيلًا للمُرْتَقَب المُتَوقَّع منزلة الكائن الواقع، وفيه إيذانٌ بسرعة التحقُّقِ والوقوع[3]، وأُكِّد الخبر بـــ(إنّ) على سبيل تحقيق الوعد المؤكد، وفى

---

(١) ينظر: تفسير السراج المنير لمحمد بن أحمد الشربيني دار الكتب العلمية ـــ بيروت، جـــ٢، صـــ١٢٩.

(٢) يس: ٥٥ ، ٥٦.

(٣) ينظر: روح المعانى للألوسى، جـــ١٢، صـــ٣٦.

تعريف المسند إليه بالإضافة فى قوله: (أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) تشريف وتكريم للمضاف؛ لأن الجنة دار تشريف وتكريم لداخليها، وفى ذكرهم بعنوان الصُّحْبَة إشارة إلى طول مُكْثِهم فيها ودوام ملازمتهم لها، وتصرفهم فيها كيفما شاءوا؛ لأن الصاحب هو: الملازم إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا، ولا يقال فى العرف إلَّا لمن كثرت ملازمته، ويقال للمالك للشيء: هو صاحبه، وكذلك لمن يملك التصرف فيه[1].

وقد تكون العبارة حكاية عما يحدث يوم القيامة لأصحاب الجنة، يقول الزمخشرى: "(إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ): حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم، وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود، وتمكين له في النفوس، وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره"[2].

والشُّغْل: العَارِضُ الذى يُذْهِلُ الإنسان[3]، ولاَ يُشْغَلُ الإنسانُ إلا بالأمرِ الذى يُوجِب كمال المسرَّة، أو كمال المساءة، والمراد هنا: الأول، فأصحاب الجنة شَغَلَهم عن كل ما يخطر بالبال ما هم فيه من السرور والنعيم، "وفي تنكير (شُغُلٍ) وإبهامه: تعظيمٌ لما هم فيه من البهجة والتلذذ، وتنبيه على أنه أعلى مما تحيط به الأفهام، ويُعْرِب عن كنهه الكلام"[4].

يقول الزمخشرى: "في شُغُلٍ لا يُوصف، وما ظَنُّك بشُغُل مَنْ سَعِدَ بدخول الجنة التي هي دار المتقين، ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك المُلْكِ الكبيرِ والنعيم المقيم، ووقع في تلك المَلاذِّ التي أعدّها اللّه للمرتضين من عباده؛ ثوابًا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم، وذلك بعد الوَلَهِ والصَّبَابَة والتَّقصِّي، من مشاق التكليف، ومضايقِ التقوى والخشية، وتخطى الأهوال، وتجاوز الأخطار، وجواز الصراط، ومعاينة ما لَقِى العصاةُ من العذاب"[5].

والفَاكِهُ والفَكِهُ: المُتَنعِّمُ والمُتَلَذِّذُ، ومنه الفَاكِهَةُ؛ لأَنَّهَا مِمَّا يُتَلَذَّذُ بِهِ، وكذلك الفُكَاهَةُ، وهي: المُزَاحَةُ وحَدِيثُ ذَوِى الأُنسِ[6]، والمعنى: أن أصحاب الجنة يتنعمون بأنواع الفاكهة، ويتلذذون بِمُلَحِ الكلام.

والضمير فى قوله: (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ) راجع إلى أصحاب الجنة، فهم وأزواجهم يتمتعون فى ظلال الجنة فى حال اتكائهم على الأرائك، وقد جمعت الآية أربعة ألوان من

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، مادة (صحب) صـ٢٧٥.

(٢) الكشاف جـ٣، صـ٣٢٦.

(٣) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، مادة (شغل) صـ٢٦٣.

(٤) تفسير البيضاوى، جـ٤، صـ٤٣٧.

(٥) الكشاف جـ٣، صـ٣٢٦.

(٦) ينظر: لسان العرب، مادة (فكه) جـ٥، صـ٣٤٥٣، ٣٤٥٤، والمفردات صـ٣٨٤.

النعيم لأصحاب الجنة: هى أنهم فى ظِلال الجنة، وبصحبة أزواجهم — وفيه ما فيه من تمام الألفة وكمال الإيناس - ، وكونهم على الأرائك[1] التى هى أكثر راحة وترفيهًا من غيرها مما يُجْلَس عليه؛ فالأريكة: سرير مُنَجَّد مُزَيَّن في قُبَّة، وكونهم مُتَّكِئين، حيث إن الاتكاء أكثر الأوضاع راحة واسترخاء، وهو جلسة أهل الرفاهية.

والظِّلال: جمع ظِلّ، وهو هنا نوع من النعيم الأخروى يتمتع به أصحاب الجنة وأزواجُهم، ويُكنى به هنا عن الراحة والتنعيم، ويجوز حمل الظِّلال على أنها جَمْعُ: ظُلَّةٍ، وتكون بمعنى السُّتُور التى تكون فوق الرأس من سقف وشجر ونحوها، ووجود ذلك فى الجنة مما لا شك فيه، فقد جاء فى الكتاب والسنة أن فى الجنة شَجَرًا وغُرَفًا، وهى ظاهرة فيما كان له سقف[2].

وقد ناسب جَمْعُ الظِّلَالِ الجَمْعَ فى (أَصْحاب الْجَنَّةِ)، فكل وأحد من أصحاب الجنة فى ظِلٍّ، أو فى ظُلَّةٍ، وإذا كان ظِلُّ الدنيا يحمى من الحرِّ والبرد والمكروه، فلأصحاب الجنة من ظِلِّها ما يمنحهم التَّلَذُّذ، والمُتْعَة والرفاهية.

— الظِّلُّ الممدود.

* ومن الآيات التى تَذْكُر الظِّلَّ نعيمًا يتمتع به أهل الجنة قوله — عز وجل -: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾[3].

فالآيات تتحدث عن نعيم أصحاب اليمين، وقد ذكرت من صنوف النعيم التى يتنعمون بها: السدر المخضود، والطلح المنضود، والظِّلّ الممدود، وفى تعريف المسند إليه (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ) بالإضافة تعظيم له أىّ تعظيم؛ لأن أصحاب اليمين "هم الذين يُؤخذ بهم يوم القيامة ذات اليمين، الذين أُعطوا كتبهم بأيمانهم"[4]، فيا سعدهم بمآلهم، ويا سرورهم بمنتهاهم!!

والاستفهام فى قوله: (مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ؟) يفيد التهويل، وهو: تفخيم المُسْتَفهَم عنه وتفظيعه؛ لينشأ عنه غرض من الأغراض، وهو هنا تعظيم منازل أصحاب اليمين، وتفخيم درجتهم، والتعجيب من منزلتهم، والحثّ على التسابق فى نيلها، وكأن ما ذكره الله — تعالى — من أنواع النعيم التى خصهم بها ليس إلا نموذجًا لتكريمهم، وما أخفاه الله — تعالى — عنا أعظم مما تدركه عقولنا.

---

(١) الأرائك: جمع أريكة، وهى السُّرُرُ فى الحِجَال، والحِجَا ل: جمع حَجَلَة: وهى القُبَّةُ، وحَجَلَة العروس معروفة وهي بيت يُزَيَّن بالثياب والأَسِرَّة والستور ، لسان العرب مادة (أرك)، ومادة (حجل).

(٢) روح المعانى للألوسى، جـ١٢، صـ٣٦.

(٣) الواقعة: ٢٧- ٣٠.

(٤) جامع البيان للطبرى، جـ٢٣، صـ١٠٩.

وكأنه يقول: أيُّ شيء أصحاب اليمين؟ وما حالهم؟ وكيف مآلهم؟ وما لهم من الخير والبركة بسبب فواضل صفاهم وكوامل محاسنهم؟ والمقصود بيان كثرة ما لهم من الثواب، يقول ابن عادل الدمشقى: "(أَصْحَاب) الأول مبتدأ، و(مَا) استفهامية – فيه تعظيم – مبتدأ ثان، و(أَصْحَاب) الثاني خبره، والجملة خبر الأول، وتكرار المبتدأ الأول هنا بلفظه مُغْنٍ عن الضمير،..ولا يكون ذلك إلا في مواضع التّعظيم"(١).

وتأمل الإضافة فى (أَصْحَابُ اليمين؟) وما تفيده من معنى التعظيم والعزة والسرور التى اكتسبها المضاف من المضاف إليه، وإنه لسرور دائم ملازم لهم ملازمة الصاحب لصاحبه؛ ولذا ذُكِرُوا بعنوان الصحبة؛ لأن المصاحبة تقتضى الملازمة وطول اللُّبْثِ(٢).

وأول صنوف نعيم أصحاب اليمين أهم (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ)، والسِّدر: شَجرُ النَّبقِ، والمَخْضُودُ: الذي لا شوك له، كأنما خُضِدَ شوكه(٣)، أى: نُزِعَ وقُطِعَ، والجار والمجرور خبرٌ ثان لأصحاب، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ، والظرفية هنا مجازية للمبالغة فى تمكنهم من التَّنَعُّم والانتفاع بما ذُكِر(٤)، "وخُصَّ السِّدْرُ بالذكر؛ لأن ثمره أشهى الثَّمَر إلى النفوس طَعْمًا، وألذّه ريحًا"(٥).

والصنف الثاني: أهم فى طَلْحٍ مَنْضُودٍ، والطَّلْحُ: شجر الموز(٦)، والمنضود: الذى ضُمَّ بعضُه إلى بعضٍ بتناسق(٧)، والظرفية هنا مجازية للمبالغة فى تمكنهم من التَّنَعُّم والانتفاع بما ذُكِر.

والصنف الثالث: الظِّلُّ الممدود، زمانًا فهو دائم لا زوال له، ومكانًا فهو مُتَّسِعٌ مُنْبَسِط ممتد لا يُنْتَقَص، ولا يتفاوت كظِلٍّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، والعرب تقول للشيء الذي لا ينقطع: ممدود، وفي الحديث عَنْ قَتَادَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا"(٨).

---

(١) تفسير اللباب، جـ١٨، صـ٤٧٥.

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني، مادة (صحب)، صـ٢٧٥.

(٣) الكشاف للزمخشرى، جـ٤، صـ٥٤.

(٤) روح المعانى، جـ١٤، صـ١٣٩.

(٥) النكت والعيون لأبي الحسن الماوردى، جـ٥، صـ٤٥٣.

(٦) جامع البيان للطبرى، جـ٢٣، ١١٢.

(٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة بالقاهرة، جـ٢، صـ٩٢٨.

(٨) صحيح البخارى، كتاب بدء الوحى، باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة، جـ٤، صـ١٤٤، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، دار الشعب بالقاهرة.

هذا: وقد تواطأت فواصل الآيات على حرف واحد هو حرف الدال (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ)، مما يزيد فى رونق الكلام وجماله، وبخاصة أن المعنى هو من قاد إلى تلك الفواصل، يقول شيخ البلاغة: "ولن تجد أيمن طائرًا، وأحسن أوَّلًا وآخرًا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعانى على سجيتها، وتدَعَها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تُرِكَت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، و لم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ..."[1].

- الظِلَالُ الدَّانية.

* ومن الآيات التى تَذْكُر الظِّلَّ نعيمًا يتمتع به أهل الجنة قوله – عز وجل –: (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا)[2].

فالآية الكريمة كشفت عن نِعْمَتين من النِّعَم التى يتمتع بها أصحاب الجنة، أُولاهما: أن ظِلال أشجار الجَنَّة دانيةٌ عليهم قريبةٌ منهم، والأخرى: أن ثمار الجَنَّة ذُلِّلَت لهم تذْلِيلًا.

وجَمْعُ الظِّلال هنا يشير إلى كثرتها وتنوعها، وقد أورد الرازى سؤالًا بخصوص الظِّلِّ، وأجاب عنه، فقال: "الظِّلُّ إنما يُوجَدُ حيث توجد الشمس، فإن كان لا شمس في الجنة فكيف يحصل الظل هناك؟ والجواب: أن أشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الأشجار مُظِلَّة منها"[3].

ودنو الظِّلال: قُرْبُها منهم، وإذ لم يُعْهَد وصف الظِّلِّ بالقُرْب يظهر أن دنو الظِّلال كناية عن تدلِّي الأدواح التي من شأنها أن تُظِلَّ الجَنَّات في معتاد الدنيا، ولكن الجنة لا شمس فيها فيستظل من حَرِّها، فتعين أن تركيب (دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا) مَثَلٌ يُطلَق على تدلي أفنان الجَنَّة لأن الظِّلَّ المُظِلَّ للشخص لا يتفاوت بدنو ولا بُعدٍ، وقد يكون (ظلالها) مجازًا مرسلا عن الأفنان بعلاقة اللزوم، والمعنى: أن أدواح الجنة قريبة من مجالسهم، وذلك مما يزيدها بهجة وحسنًا[4].

وتقديم الجار والمجرور (عَلَيْهِمْ) على (ظِلالُهَا) يفيد تخصيص تلك الظلال الدانية الكريمة المُرِيحَة التى لا حرَّ فيها ولا برد، تخصيصها بأهل الجنة بحيث لا تتعداهم إلى غيرهم من أهل النار، فهى دانية عليهم لا على غيرهم. وتأمل قوله تعالى (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا)، أى: انقادت ثمارها وسَهُلَت لهم غير مُتَصَعِّبَة، فلا التواء فيها ولا شِدَّة تُتْعِبُ قاطفها بل يتناولونها بسهولة ويسر، وقد استعير التذلل هنا للتيسير بجامع

---

(١) أسرار البلاغة، ت/ محمود شاكر، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م، دار المدنى. جدة، صـ١٤.

(٢) الإنسان: ١٤.

(٣) مفاتيح الغيب، جـ٣٠، صـ٧٥٠.

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور، جـ ٢٩، صـ٣٦٢.

السهولة فى كل، يقول الشريف الرضى: (وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا) وهذه استعارة، والمراد بتذليل القطوف – وهى عناقيد الأعناب وواحدها قِطْفٌ – أنها جُعِلَت قريبة من أيديهم، غير مُمْتَنِعَة على مَجَانِيهم، لا يحتاجون إلى معاناة فى اجتنائها، ولا مشقة فى اهتصار أفنانها، فهى كالظَّهْر الذلول الذي يوافق صاحبه، ويواتى راكبه"[1]، والتذليل هاهنا مأخوذ من الذِّلّ بكسر الذال، وهو ضد الصعوبة، والذُّلُّ – بضم الذال – ضدّ العِزِّ والحَمِيَّة[2].

وبناء الفعل (وَذُلِّلَتْ) للمفعول من باب حذف المسند إليه، لأن نائب الفاعل ليس هو المسند إليه فى الحقيقة، وحذف المسند إليه الحقيقى فى قوله: (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا) يشير إلى العلم به وقوة ظهوره، وأن هذا التذليل العظيم لقطوف الجنة لا يكون إلا من الذى خلقها وذلّلها، ويشير أيضًا إلى سرعة استجابتها لتذليل ربها. والقِطْف:ما قُطِف من الثَّمَر، والقِطْف:اسم الثِّمَار المَقْطُوفَة، والجمع قُطُوف[3]، وعليه فالثمار بعد القطف قُطُوف، وقبل القَطْف ثمار، والنظم الكريم أطلق على الثمار قبل القَطْف قُطُوفًا من تسمية الشيء بما يئول إليه مجازًا مرسلًا؛ وكأن ثمار الجنة لنضجها وحلاوة مذاقها ويسر قطافها كأنها قد قُطِفَت وأُعِدَّت للتناول والتذوق.

وصيغة الجمع (قُطُوفُهَا) تفيد التكثير والتنويع تبعًا لكثرة المتمتعين بها والمتناولين لها، وإضافتها للضمير العائد إلى الجَنَّة يفيد التشريف والتعظيم، وفى الإتيان بالمصدر (تَذْلِيلًا) بعد الفعل (وَذُلِّلَتْ) تأكيد لمعنى الفعل، هذا فضلًا عما بين الكلمتين من جناس الاشتقاق الذى يُكسب الكلام جمالًا لفظيًّا ووقعًا موسيقيًّا، تطرب له الأذن، وتهتز له أوتار القلوب.

وللقارئ الكريم أن يسأل، عن سرِّ التنويع فى صياغة هاتين النعمتين، ففى جانب دُنُوِّ الظِّلَال أتى بصيغة الاسم (ودَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا)، وفى جانب تذليل القطوف التي تفيد الدنو أيضًا، إضافة إلى أنها ميسّرة وليس هناك ما يمنع من رد اليد عنها، أتى بصيغة الفعل (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا)، والجواب عن ذلك يرجع إلى أن الظلال ثابتة مستقرة فعُبِّر عنها بصيغة الاسم التى تدلّ على الثبوت، أما القُطُوف فهي متجددة، تتجدد كلما أكلوا منها أو قطفوا منها؛ ولذا عُبِّر عنها بصيغة الماضى الواقع موقع المضارع هنا إشارة إلى تحقق الوقوع، وإذا دنت الظِّلَال ودنت القُطُوف فهَي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال.

---

(١) تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى، دار الأضواء، بيروت، جـ٢، صـ٣٥٣.

(٢) تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ت/ محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مادة (ذلل) جـ١٤، صـ٢٩٤.

(٣) لسان العرب مادة (قطف)

– الظِّلالُ والعيون.

* ومن الآيات التي تَذْكُر الظِّلّ نعيمًا يتمتع به أهل الجنة قوله – عز وجل –: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].فالذين اتقوا الشِّرْكَ والتَّكذيبَ، واتقوا عقاب الله – عز وجل – بأداء فرائضه واجتناب معاصيه يتمتعون فى الآخرة بِظِلَال مُريحَة، لا يصيبهم أذًى من حَرٍّ أو قَرٍّ، ويستمتعون بعيون جارية بشتَّى أنواع المشروبات.

تأمَّل كيف قدَّم النظم القرآنى نعمة الظِّل على غيرها من أنواع النِّعم المذكورة، كنعمة العيون، والفواكه، وما ذاك إلا لأهمية الظِّل ودوره فى الراحة والسعاة والتَّرفُّه، وبخاصة عند العربى من أهل البلاد الحارة، ويُكنى بالظِّلال هنا عن العزَّة والرفاهية والمنعة، تناسبًا مع ما ذكر فى نفس السورة من حال المكذبين الذين يقال لهم: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ، انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ، لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾[2]، فهذا حال المكذبين، أمَّا المتقون فهم فى عزة ومَنَعَة من أن يطالهم هذا النوع الغريب من الظِّلّ، إنهم آمنون مترفهون فى ظِلال الجَنَّة.

وفى التعبير بصيغة الجمع (فِي ظِلَالٍ) إشارة إلى أنها "ظلال كثيرة؛ لكثرة شجر الجنة وكثرة المستظلين بظلها، ولأن لكل واحد منهم ظِلًّا يتمتع فيه هو ومن معه، وذلك أوقع في النعيم، والتعريف في (الْمُتَّقِينَ) للاستغراق، فلكل واحد من المتقين كون في ظلال، و(فِي) للظرفية، وهي ظرفية حقيقيَّة بالنسبة للظِّلال، لأن الْمُسْتظِلّ يكون مظروفًا في الظِّلّ، وظرفية مجازية بالنسبة للعيون، والفواكه، تشبيهًا لكثرة ما حولهم من العيون والفواكه بإحاطة الظروف"[3].

وتأمل ما فى تنكير الظِّلال والعيون من معنى التكثير والتنويع، فظِلال الجنة كثيرة تتناسب مع سعة الجنة وكثرة أشجارها وبنيانها، ومتنوعة تتناسب مع تنوع أشجارها وبنيانها ودرجات أصحابها، وكذلك عيون الجنة فى كثرتها وتنوعها، كعيون السلسبيل والرحيق، والخمر، والعسل، واللبن، وغير ذلك.

ثم تأمل القيد بالجار والمجرور فى قوله: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾، وما يفيده من أن المأكل فى الجنة إنما يكون بحسب ما يشتهون من ألذ الفواكه وأطيبها لا بحسب ما يجدون كما هو الحال فى الدنيا غالبًا.

وانظر إلى الأمر فى قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فلا يُرادُ بالأمر هنا الإلزام، إذ لا تكليف فى الآخرة، وإنما يراد التكريم والإيناس بعرض تناول النعيم عليهم كما يفعله المُضيفُ بضيوفه، وتأمل تقييد

---

(١) المرسلات: ٤١- ٤٣.

(٢) المرسلات: ٢٩- ٣١.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ٢٩، صـ٤٠٩.

الأكل والشرب بالحال فى قوله: (هَنِيئًا)وإفادته لعدم التكدير أو التنغيص، أى: "كلوا أيها القوم من هذه الفواكه، واشربوا من هذه العيون كلما اشتهيتم هنيئا لا تكدير عليكم، ولا تنغيص فيما تأكلونه وتشربون منه، ولكنه لكم دائم، لا يزول، ومريء لا يورثكم أذى في أبدانكم"[1].

ثانيًا: خصائص ظِلِّ النار.

كما جاء الظِّلُّ فى الجنة نوعًا من أنواع النعيم بالنسبة للمؤمنين، ورد أيضًا ذكر الظِّلِّ فى النار لونًا من ألوان العذاب بالنسبة للكافرين.

- ظُلَلُ النَّارِ الفوقية والتحتية.

* ومن مجيء الظِّلِّ لونًا من ألوان تعذيب الكافرين فى النار قوله – تعالى –: (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)[2].تصور الآية الكريمة حال الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بأن النار تشملهم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من كل جانب، فلا يستطيعون منها فرارًا، ولا يجدون عنها محيصًا.والظُّلَلُ: جمع ظُلَّةٍ، وأكثر ما يُقال فيما يُستَوْخَم ويُكْرَه، والظُّلَّةُ أيضًا: شَيْءٌ كهيئةِ الصُّفَّةِ[3]، وهى السَّقِيفَة المُظَلَّلَة أو المِظَلَّة، التى يُحْتَمَى بِظِلِّهَا من حَرِّ الشمس، ولا وجود للظُّلَلِ بهذا المعنى فى دار العذاب، وعليه فالظُّلَلُ فى الآية مستعارة لطبقات العذاب التى تكون فوق الخاسرين أنفسهم وأهليهم فى نار جهنم، يقول ابن عاشور: "وهي – أى: الظُّلَلُ – هنا استعارة للطبقة التي تعلو أهل النار في نار جهنم بقرينة قوله: (مِنَ النَّارِ)، شُبِّهَت بالظُّلَّة في العلو والغِشْيَان مع التَّهَكُّم؛ لأنهم يتمنون ما يحجب عنهم حر النار فعُبِّرَ عن طبقات النَّار بالظُّلَلِ؛ إشارة إلى أنهم لا واقي لهم من حر النار على نحو تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وقوله: (لَهُمْ) ترشيح للاستعارة"[4].

فإن قِيلَ: الظُّلَلُ ما فوق الإنسان فكيف يُسَمَّى ما تَحْتَه بالظُّلَلِ؟ والجواب من وجوه، الأول: أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر، كقوله: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها)[5]، وهو ما يُعرف بالمشاكلة[6]، والثاني: أن الطَّبَقَات التي تحتهم من النار تكون ظُلَلًا لكفار آخرين؛ لأن جهنم دركات كما

---

(١) جامع البيان للطبرى، جـ٢٤، صـ١٤٣.

(٢) الزمر: ١٦.

(٣) المفردات للراغب الأصفهانى، مادة (ظلل)، صـ٣١٤، ٣١٥.

(٤) التحرير والتنوير، جـ٢٤، صـ٤٨.

(٥) الشورى: ٤٠.

(٦) المشاكلة: "هى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقًا أو تقديرًا" معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسى، ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٣٦٧هـ ١٩٤٧م، عالم الكتب، بيروت، جـ٢، صـ٢٥٢.

أن الجنة درجات، والثالث: أن الظُّلَلَ التي تحتهم تشابه الظُّلَل التي فوقهم في الحرارة والإحراق والإيذاء، فأطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة، والمقابلة، فهم بين طبقتين من النار لا يدرون أيهما أشد لفحًا وتعذيبًا[1]. وتأمل طباق الإيجاب الواقع بين الظرفين: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ و﴿مِن تَحْتِهِمْ﴾، وما فيه من تأكيد لمعنى الإحاطة، وتقوية لمعنى الشمول، فبلاغة الطباق ترجع إلى تأثيره في ناحيتين: ناحية لفظية، وذلك بمجيئه في الآية سلسًا طيِّعًا غير مُتكلّف، فأضفى على الأسلوب جزالة وفخامة، وجعل له وقعًا وتأثيرًا، وناحية معنوية بما حَقَّقَه من إيضاح المعنى وإظهاره، وتأكيده وتقويته، عن طريق المقارنة بين الضدين؛ فَيَبْرُز المُرادُ شاخصًا واضحًا لا لبس فيه ولا التواء، وهو إتيان العذاب للكافرين من فوقهم، ومن أسفل منهم، وفي هذا ما فيه من تخويفٍ لهم ولغيرهم، ودعوةٍ لجميع العباد إلى الحذر ومجانبة ما يُؤدي إلى هذا المآل الرهيب.

وتأمل تعريف المسند إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾، وهو مشار به إلى حال العذاب الذي ينتظر الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، والغرض من تعريف المسند إليه باسم الإشارة هنا هو تمييز المسند إليه أكمل تمييز في ذهن المخاطبين؛ ليخافوا ويبالغوا في الخوف والحذر والتَّقْوَى، وما في اسم الإشارة من البُعد يشير إلى عظيم هول ذلك العذاب وشدته، إنه "مشهد رعيب حقًّا، مشهد النار في هيئة ظُلَلٍ من فوقهم، وظُلَلٍ من تحتهم، وهم في طيات هذه الظُّلَلِ المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم، وهي من النار! إنه مشهد رعيب، يعرضه الله سبحانه لعباده وهم بَعْدُ في الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه، ويخوفهم مَغَبَّتَه؛ لعلهم يجتنبونه"[2]. ثم تأمل النداء ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ وما فيه من تنبيه واسترعاء للانتباه تمهيدًا للأمر الوارد على جهة الإلزام والتكليف، وقُدِّم النِّداء على الأمر مع أن مقتضى الظاهر تأخيره عنه كقوله تعالى ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[3]؛ لأن المقام هنا مقام تحذير وترهيب، فهو جدير باسترعاء ألباب المخاطبين إلى ما سيرد من بعد من التفريع على التخويف، بخلاف آية البقرة فإنها في سياق الترغيب في إكمال أعمال الحج والتزود للآخرة؛ فلذلك جاء الأمر بالتقوى فيها معطوفًا بالواو[4].

– **ظِلُّ اليحموم.** * ومن حديث القرآن عن ظِلِّ النار قوله – تعالى –: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ، لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[5]. تصور الآياتِ مصير أصحاب

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي، جـ٢٦، صـ٤٣٤، وروح المعاني للألوسي، جـ١٢، صـ٢٤١.

(٢) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب، جـ٥، صـ٣٠٤٥.

(٣) البقرة: ١٩٧.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ٢٤، صـ٤٩.

(٥) الواقعة: ٤١ – ٤٤.

الشمال، وأنهم يوم القيامة يكونون فى سموم وحميم، وظِلٍّ من يحموم، لا بارد ولا كريم، والسَّمُومُ: الرِّيحُ الحَارَّةُ التى تُؤَثِّرُ تَأْثِيرَ السُّمِّ[1]، والحَمِيمُ: المَاءُ الشَّدِيدُ الحَرَارَةِ، وسُمِّى العَرَقُ حَمِيمًا على التشبيه، واليَحْمُومُ: يَفْعُولٌ من الحَمِيمِ، وياؤه زائدة، وقيل: أصله الدُّخَانُ الشَّدِيدُ السَّوَادِ، وَتَسْمِيَتُهُ؛ إِمَّا لِمَا فِيهِ مِنْ فِرْطِ الحَرَارَةِ، كَمَا فَسَّرَهُ فِى قَوْلِهِ: (لاَّ بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ)، أَوْ لِمَا فِيهِ مِنَ شِدَّةِ السَّوادِ، فَقَدْ قِيلَ لِلْأَسْوَدِ: يَحْمُومٌ[2].

.. وأصحاب الشمال هم من يأخذون كتبهم بشمالهم[3]، وهم الذين قُوبلوا فى نفس السورة بأصحاب اليمين يقول الزمخشرى: "فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ الذين يُؤْتَوْنَ صحائفهم بأيمانهم، وَأَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ الذين يُؤْتَونَها بشمائلهم، أو أصحاب المنزلة السَّنِيَّة وأصحاب المنزلة الدَّنِيَّة، من قولك: فلان مِنِّى باليمين، وفلان مِنِّى بالشِّمَال: إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضِّعَة؛ وذلك لتَيَمُّنِهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل، ولتفاؤلهم بالسانح وتطيرهم من البارح، ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليُمْنِ ، وسموا الشمائل الشؤمى، وقيل: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة: أصحاب اليُمْنِ والشُّؤْم؛ لأنّ السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم، والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم، وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين، وبأهل النار ذات الشمال[4].

والاستفهام فى قوله: (مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ؟) يفيد التهويل، وهو: تفخيم المستفهم عنه وتفظيعه؛ لينشأ عنه غرض من الأغراض، وهو هنا تفظيع منازل أصحاب الشِّمَالِ، وتهويل درجتهم، والتعجيب من منزلتهم، والحثّ على تجنب مآلهم، وكأن ما ذكره الله — تعالى — من أنواع العذاب الذى خصهم به ليس إلا نماذج لتعذيبهم، وما أخفاه الله — تعالى — عنا أعظم مما تدركه عقولنا، وهكذا تجد هذا الضرب من الاستفهام فى كل ما يعظم أمره، ويعز على العقل تصوره وإدراكه.

وتأمل الإضافة (أَصْحَابُ الشِّمَالِ؟) وما تفيده من معنى التحقير والخِسَّة والدناءة التى اكتسبها المضاف من المضاف إليه، وإنه لتحقير دائم ملازم لهم ملازمة الصاحب لصاحبه؛ ولذا ذُكروا بعنوان الصحبة؛ لأن المصاحبة تقتضى الملازمة وطول اللُّبْثِ[5].

---

(١) المفردات للراغب الأصفهانى، مادة (سمم)، صـ٢٤١.

(٢) المفردات للراغب الأصفهانى، مادة (حمم)، صـ١٣٠، ولسان العرب لابن منظور، مادة (حمم) ، جـ٢، صـ١٠١٠.

(٣) تفسير اللباب لابن عادل، جـ١٨، صـ٤٠٥.

(٤) الكشاف للزمخشرى، جـ٤، صـ٥٢.

(٥) المفردات للراغب الأصفهانى، مادة (صحب)، صـ٢٧٥.

وأول صنوف عذاب أصحاب الشِّمال وثانيها: أنهم (فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)، والجار والمجرور خبرٌ ثان لأصحاب، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، والظرفية هنا حقيقية، فالريح الحارة تحيط بهم إحاطة الظرف بالمظروف بحيث لا تبقى لهم متنفَّسًا، وتدخل فى مسام أبدانهم، وكذلك الحميم يحيط بجميع أبدانهم، عرقًا حارًّا نتنًا.وثالث صنوف عذابهم: أنهم فى (ظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ)، وقد قال أهل العلم: أن اليَحْمُومَ: هو الدُّخَانُ الأسود، واليحموم: الأسود[1] وعليه فلا وجود لمعنى الظِّلِّ الذى يُتَبَرَّد به من حرِّ الشمس، والظِّلُّ فى الآية مستعار لطبقات النار السوداء التى تكون فوق أصحاب الشِّمال، وفى تسميتها ظِلًّا ما فيه من التهكُّم بهم والسخرية منهم، حيث شُبِّه ما يعلوهم من طبقات النار بالظِّلِّ فى العلوِّ والغشيان؛ تهكُّمًا بهم وسخرية؛ لأنهم يتمنون ما يحجب عنهم حر النار فعُبِّرَ عن طبقات النَّار بالظِّلِّ؛ إشارة إلى أنهم لا واقي لهم من حرِّ النار.ووصف الظِّلِّ بأنه من (يَحْمُومٍ) يفيد بأن طبقات النار التى تعلو أصحاب الشمال شديدة السواد، وذُكِرت طبقات النار هنا باسم الظِّلِّ مشاكلة لما ذُكر فى نفس السورة من الظِّلِّ الممدود لأصحاب اليمين، ولكن شتان ما بين ظِلِّ أصحاب اليمين الممدود بما فيه من روح وريحان، وبين ظِلٍّ من يحموم، ولتحقيق معنى السخرية من أصحاب الشمال جاء وصف ظِلِّهم بأنه (لَا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ)، وبرد الظِّلِّ هو ما يحصل فى مكانه من حجب لشعاع الشمس وحرارتها، وكرمُ الظِّلِّ هو ما يكون فيه من سلامة الموضع من الحشرات والأوساخ والمؤذيات، وسلامة أرضه من الحجارة والأشواك ونحو ذلك، إضافة إلى سلامة هوائه من هبوب السموم... ، وقد نُفيت تلك الصفات من ظِلِّ أصحاب الشمال، ولم يبق لهم من الظِّلِّ سوى جهة الفوقية والغشيان وما فيهما من نار تلظَّى، وسموم وحميم.والمقصود: أن هناك الغمُّ والهمُّ، والحزن والشرُّ الذى لا خير فيه؛ لأن نفى الضِّدِّ إثبات لضدِّه ونفى الكرم عن الظِّلِّ من باب الاستعارة المكنية، حيث شبه الظِّلَّ بالإنسان، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه، وهو جواز اتصافه بالكرم، "والعرب تجعل (الكريم) تابعًا لكل شيء نفت عنه وصفًا تنوى به الذَّم، يُقال: أَسَمِينٌ هذا؟ فتقول: ما هو بِسَمِينٍ ولا كريمٍ، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة"[2]، وقد تواطأت فواصل الآيات على حرف الميم دون تكلُّف أو تصنع فى استجلابها، مما أضفى على الكلام تناغمًا إيقاعيًّا واضحًا.

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة، ت/أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت،١٣٩٨هـ-١٩٧٨م،صـ٤٤٩،وإملاء ما منَّ به الرحمن لأبى البقاء العكبرى، ت/ إبراهيم عطوه عوض، المكتبة العلمية، لاهور، باكستان، جـ٢، صـ٢٥٤.

(٢) معانى القرآن لأبى زكريا يحيى الفراء، ت/ محمد على النجار وآخرين، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، جـ٣، صـ١٢٦.

– الظِّلُّ ذِي الثَّلَاث شُعَب.

* ومن مجيء الظِّلِّ صنفًا من صنوف العذاب قوله – تعالى –: (انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ، انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ، لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ)[1].

والخطاب فى الآيات للمكذبين بيوم الدين، حيث يقال لهم: انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب، انطلقوا إلى ظِلٍّ، وقد ذكرت فيما سبق أن الظِّلَّ هو ما يقى من أشعة الشمس وحرِّها، ويجد فيه قاصِدُه راحة واطمئنانًا، ولا يُوجدُ لهذا الظِّلِّ فى النار مكان، وعليه فلفظ الظِّلِّ هنا مستعار لما يعلو المكذبين من طبقات النار بجامع الغشيان والتغطية والإحاطة، وفى تسمية طبقات النار التى تعلوهم ظِلًّا ما فيه من التهكُّم بهم والسخرية منهم؛ لأنهم يتشوقون إلى ظِلٍّ يأوون إلى برده، ويتمنَّون ما يحجب عنهم حرَّ النار فإذا هو نار. وقد وُصِف الظِّلُّ بأنه (ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ)، والشُّعَبُ: جمع شُعْبَةٍ، والشُّعْبَةُ: الفِرْقَةُ والطَّائفَةُ من الشَّيْءِ[2]، والمعنى: انطلقوا إلى ظِلٍّ ذي ثلاث طوائف، وأريد بها: طوائف النار، أو طبقات وقطع النار، وخصوصية الثلاثة راجعة إلى أن طَبَقَاتِ النار وطوائفَهَا تكون من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، ومُحِيطَةً بهم من بقية الجوانب[3].

وتأمل الوصف الثانى للظِّلِّ: (لا ظَلِيلٍ) لقد نفى عنه غزارة الظل التى أفهمتها صيغة المبالغة وبذلك يكون قد سلب من هذا الظِّلِّ خصائص الظِّلَال؛ لأن شأن الظِّلِّ أن يُنَفِّس عن الذي يأوي إليه ألم الحَرِّ، وهذا تهكم بهم وتعريض بأن ظِلَّهم ليس بظِلٍّ، وليس كظل المؤمنين، ثم نفى عنه ما قد يتبقى له من نفع بقوله: (وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ)، أى: لا يَرُدُّ عنهم من لهب النار شيئًا. وتأمل كيف جاء النظم الشريف بالصفة الأولى (لا ظَلِيلٍ) اسمًا، وبالصفة الثانية (وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ) فعلًا؛ ليدل على أن نفى الصفة الأولى من الظِّلِّ نفى ثابت ومستقر، وأن نفى الإغناء عن اللهب نفي متجدِّد تجدُّد اللهب والشرر، وهذا تيئيس للمكذبين أىَّ تيئيس. ثم تأمل الأمر فى مطلع الآيات (انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ)، وهو مقول قول محذوف، أى: يُقال للمكذبين انطلقوا، والأمر هنا للتسخير؛ لأن الملائكة تسوقهم إلى العذاب سوقًا، ويضاف إلى التسخير معنى التقريع والتوبيخ، وما كانوا به يكذبون هو العذاب، وعُبِّر عنه بالموصول وصلته؛ لما تتضمنه الصلة من التنبيه على خطئهم وضلالهم[4]. وقد فُصِلَت هذه الجملة: (انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ

---

(١) المرسلات: ٢٩ – ٣١.

(٢) لسان العرب، مادة (شعب)، جـ٤، صـ٢٢٦٩.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازى، جـ٣٠، صـ٧٧٤.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ٢٩، صـ٤٠١.

ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ) عن الجملة الأولى: (انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ)؛ لما بينهما من كمال الاتصال، المتحقق بكون الجملة الثانية مُنَزَّلة من الأولى منزلة بدل البعض من الكل؛ لأن العذاب المُعَبَّرَ عنه بالظِّلِّ فى الجملة الثانية بَعضٌ مما يُكَذِّبُ به المكذبون؛ لأنهم يكذبون بالبعث، والحشر، والحساب، والنار...، والغرض المسوق له الكلام هنا هو التنبيه على جزاء المكذبين بالعذاب، وأنهم سَيُطَوَّقُون بظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ، والجملة الثانية المبدلة من الأولى بدل بعض من كل أوفى بتأدية هذا المعنى المراد، والمقام يقتضى الاعتناء بشأنه؛ لكونه مطلوبًا فى نفسه؛ تخويفًا للمكذبين حتى يرتدعوا.

ومقتضى الظاهر أن يقال: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ظِلٍّ ذي ثلاث شُعَبٍ..، ولكن كُرِّر الأمر (انطَلِقُوا)؛ لأن فى تكراره زيادة تبكيت لهم وتقريع، وتهويل عليهم وتشنيع.

ولا يخفى ما بين (ظِلٍّ) و(ظَلِيلٍ) من جناس لفظى، وما فيه من تجاوب موسيقى صادر عن تماثل الكلمتين تماثلًا تطرب له الأذن، وتهتز له أوتار القلوب، كما لا يخفى ما بين الآيتين الأخيرتين من سجع رصين غير متكلف، يؤثر فى النفوس تأثير السحر؛ لما يحدثه من نغمة مؤثرة، تطرب لها الأذن وتهش لها النفس، فتقبل على السماع، فيتمكن المعنى فى النفوس، ويَقَرَّ فى القلوب....، والله — تعالى – أعلى وأعلم.

الخاتمة

الحمد لله الخَالِقِ من العَدَمِ، الواهبِ الإنسانَ صُنوفَ النِّعمِ، المُستَحقِّ الشُّكْرَ فى البَدْءِ والمُختَتَمِ، والصلاة والسلام على سيد الخلق المُرْسَلِ إلى أشرفِ الأُمَمِ، وعلى آله وأصحابه ذَوِى أطْهَرِ الخِصَالِ، وأَعْظَمِ الشِّيَمِ.

أمَّا بعد

فقد انتهيت بحمد الله وتوفيقه من إعداد هذا البحث (الظِّلُّ فى ضَوءِ النَّظْمِ القرآنى)، وقد بدأ البحث بمقدمة فيها أهمية الموضوع والدافع إليه، ثمّ التمهيد وفيه تعريفٌ بالظِّلِّ وأهميَّته، ثمّ الفصل الأول وهو تحت عنوان (النظم القرآنى لظِلِّ الدنيا)، وفيه الآيات التى تتحدث عن الظِّلِّ فى الدنيا، ثمّ الفصل الثانى وهو تحت عنوان: (النظم القرآنى لظل الآخرة)، وفيه الآيات التى تتحدث عن الظِّلِّ فى الآخرة.

وبتوفيق الله – تعالى – تمت هذه الدراسة، وهى دراسة لا أدَّعى فيها الكمال، فالكمال لله وحده، ولكنى أذكر أننى اجتهدت وعانيت وصابرت، والله من وراء القصد، وفى ضوء هذه الدراسة أستطيع أن أرصد النتائج الآتية:

أولًا: تنوعت المقامات التى ورد فيها الظِّلُّ فى الذكر الحكيم، ففى مقام الإنعام والتكريم نرى ظِلال الغمام تُظَلِّلُ بنى إسرائيل، ونرى تفيُّأَ الظِّلَالِ عن اليمين والشمائل، ونرى الظِّلَّ مَأْوًى للأنبياء ومُثيرًا للدعاء، وفى مقام التخويف والتعذيب نرى جَبَلًا مَنْتُوقًا يُظَلِّلُ رءوس بنى إسرائيل، ونرى ظُلَّةً تقضى على أصحاب الأيكة، ونرى ظُلَلَ الأمواج تكاد تفتك بالفلك وراكبيها.

ثانيًا: تنوعت أوصاف الظِّلَال تبعًا لتنوع الزمان، ففى ظِلَال الدنيا نرى ظِلَالًا تَسْجُد، وظِلَالًا تُمَدُّ وتُقْبَضُ، وظِلَالًا تُشَبَّه بها الجبال، والأمواج ضخامة وترهيبًا، وفى هذا تخييل عجيب، فهذه الظِّلَال الرقيقة ذات النسمات الرطيبة والثمرات اللذيذة، والتى هى مستراح الناس والدواب والأنعام، يحظون فيها بالهناءة والاسترواح والنشاط، ويحتمون بها من وهج الشمس وشدة الحر، سرعان ما تتحول إلى أداة تخويف وتعذيب للعصاة والمكذبين نراها أصلا للضخامة والارتفاع والظلمة والرعب ودونها فى ذلك الجبال والأمواج، وفى الآخرة نرى ظِلَالًا ظَلِيلَة، وظِلَالًا ممدودة، وظِلَالًا دانية، وظِلَالًا من اليحموم لا باردة ولا كريمة، وظِلَالًا متشعِّبة إلى شُعَب ثلاث، وظِلَالًا من فوق المكذِّبين ومن تحتهم.

ثالثًا: اتَّسم النظم القرآنى للظِّلِّ بالوضوح والسهولة شأن الظِّل فى وضوحه وسُهُولَةِ تَعَرُّفِ الناظرين عليه، فالآيات التى ذكرت الظِّلَال واضحة الألفاظ سهلة الأساليب تنفذ إلى القلب فور نفاذها إلى الأذن، وقول الله – تعالى –: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا

الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا)[1] نموذج لهذا الوضوح وتلك السهولة، ولم أجد فى آيات الظِّلِّ كلمة تميل نحو الغرابة سوى وصف الظِّلِّ بلفظ (اليَحْمُوم) الوارد فى قوله – تعالى –: (وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ)[2]، جزاء لأصحاب الشمال، وغرابة اللفظ هنا هى منبع بلاغته؛ لمناسبته لغرابة أفعالهم، فقد كانوا فى دنياهم مترفين بالنِّعَم التى تحثهم على التوحيد والطاعة، ولكنهم مع ذلك أصروا على الحنث العظيم وأنكروا البعث وما فيه.

رابعًا: ورد لفظ الظِّل فى الذكر الحكيم عشرين مرة، بعضها جاء بصيغة المفرد، وبعضها جاء بصيغة الجمع، وبعضها ورد فى صورة الفعل، وبعضها جاء مُنَكَّرًا، وبعضها جاء مُعرَّفًا بالإضافة، وبعضها جاء مُعرَّفًا بـــ(أل)، ففى ثمانى مواضع أتى النظم بصيغة المفرد وهى فى الآتى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ..، ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ..، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ..، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ..، انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ..، وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ..، وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ..، عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ)، وفى عشر مواضع أتى بصيغة الجمع، وهى فى الآتى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالًا..، هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ..، إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ..، يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ..، وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ..، وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا..، هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ..، لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ..، وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ)، وفى موضعين جاء بصيغة الماضى المسند إلى نون العظمة، وهما فى الآتى: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ..، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ)، والتعريف والتنكير واضح فى تلك الصيغ، ومما هو مؤكد أن كلَّ صيغة من تلك الصِّيَغ قد استدعاها المقام، وتناسبت مع السياق وعبرت عن المراد بها أتم تعبير وأبلغه.

خامسًا: برزت فى نظم آيات الظِّلِّ شتى صور البلاغة مما ساهم فى الكشف عن حقيقة الظِّلِّ، وصفاته وما يعود على البشر منه فى الدنيا والآخرة سواء كان ظِلَّ نعيم وتنعيم، أم ظِلَّ ترهيب وتعذيب، فالإيجاز بنوعيه: القِصَر والحذف من أهم صور البلاغة فى آيات الظِّلِّ، تأمل إيجاز الحذف فى قوله: (مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا)[3]، أى: وظِلُّها كذالك، وتأمل إيجاز القِصَر فى قوله: (ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)[4]، فقد عبَّرت هذه الكلمات الموجزة عن كل معانى الراحة بعد التَّعَب، والاسترخاء بعد الجهد، وعن كل ما يمكن أن يُطْلَبه

---

(١) الفرقان: ٤٥، ٤٦.

(٢) الواقعة: ٤٣.

(٣) الرعد: ٣٥.

(٤) القصص: ٢٤.

الغريبُ المنهوكُ من ربِّه.، وتأمل إيجاز القصر فى قوله: (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ)[1]، وكيف عبَّرت هذه الكلمات عن كل ما دار بين شعيب — عليه السلام — وقومه من بداية إرساله إليهم وحتى انتهى أمرهم بعذاب يوم الظُّلَّة.

* كما برز واضحًا دور التضاد فى الكشف عن أهمية الظِّلال ودورها فى التلطيف على الناس وإمدادهم بالراحة وحمايتهم من شدَّة القيظ ووهج الشمس ولفح الحرِّ، تأمل قوله — تعالى -: (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاء وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ)[2]، وقوله: (أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)[3]، فبالحَرُورِ يتميز الظِّلّ، وباليمين والشِّمال تتبين فوائده، ودور المجاز فى بيان المقصود من الآية مما لا يخفى، وقد بُيِّن فى موضعه من البحث ... إلى غير ذلك

* كما برز دور التشبيه فى بيان جانب الرهبة والتخويف للظِّلّ بجعله مُشبَّهًا به فى غير آية، وما ذاك إلا لأنه أقوى فى الاتصاف بوجه الشبه وأعرق وأكمل، وفى جَعْلِه مُشبَّهًا به مزيد تحديدٍ لصفاته، وبيان لمكانته، تأمل قوله — تعالى -: (وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ)[4]، وقوله: (وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...)[5]، ففى تشبيه الجبل بالظُّلَّة، والموج بالظُّلَلِ، إشارة إلى أن وجه الشبه وهو الضخامة والارتفاع والرهبة أتمُّ وأقوى وأشهر فى المشبه به، وهذا بيان لحقيقة الظِّلّ وتخييل عجيب يجعل من الظِّلّ ذى الروح والراحة ظِلًّا مُخِيفًا مرعبًا يوشك على الفتك والدمار بمن يقع فى حيِّزه، وهذا التصوير البديع يتناسب وجَوِّ الخوف والهلع الذى تصوره الآيتان.

* كما برز دور التكرار فى بيان نوع الظِّلّ الذى يُؤمَرُ المكذبون بالانطلاق إليه (انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ، انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ، لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ)[6]، فالتكرار هنا بغرض توبيخ المكذبين، وإهانتهم، وقد كشف التكرار هنا عن مدى قبح الظِّلّ وفظاعته، وأن المكذبين يفزعون منه ولا يرغبون فى التوجه نحوه، ولا يقصدونه إلا سوقًا وقهرًا وبعد تكرار الأمر.

---

(١) الشعراء: ١٨٩.

(٢) فاطر: ١٩ — ٢٢.

(٣) النحل: ٤٨.

(٤) الأعراف: ١٧١.

(٥) لقمان : ٣٢.

(٦) المرسلات: ٢٩ — ٣١.

* كما ظهر دور الفواصل وتواطئها على حرف واحد، فى تناسق النَّغم، وتناسب الكلام، وترابط أجزائه وتلاحمها، كما جاء فى قوله – تعالى –: (فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)[1]، وقوله: (فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ، لاَّ بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ)[2]، وغير ذلك، مما "يُؤثِّر فى النفوس تأثير السِّحْر، ويلعب بالأفهام لَعِبَ النَّارِ بالهشيم؛ لما يُحدِثُه من النَّغَمة المُؤثِّرَة والموسيقى القويَّة التى تَطْرَبُ لها الأذن، وتَهِشُّ لها النَّفْسُ، فتقبل على السماع من غير أن يدخلها مَلَل، أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى فى الأذهان، ويقرُّ فى الأفكار، ويعزُّ لدى العقول، وهذا كُلُّه رأْسُ البلاغة ومقصدُ البلغاء"[3]... إلى غير ذلك من خصوصيات النظم التى تم الكشف عنها أثناء تحليل آيات الظِّلِّ فى تضاعيف هذا البحث.

وبعد: فهذا ما جرى به القلم شرحًا وبيانًا لشواهد الظِّلِّ فى ضَوْءِ النظم القرآنى، فإن كنت قد أصبت ووفقت فيما قصدت فذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء، وإن تكن الأخرى، فحسبى أننى بذلت جهدى قدر طاقتى، والكمال لله وحده، وصدق القائل:

مَنِ الَّذِى مَا سَاءَ قَط وَمَنْ لَهُ الحُسْنَى فَقَط

وفى الختام أتوجَّه إلى الله – تعالى – أن يجعل عملى خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به إنه نعم المجيب، (رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) البقرة: ٢٨٦.

الباحث

د/ إبراهيم حسن أحمد

(١) الواقعة: ٢٨ – ٣٠.

(٢) الواقعة: ٤٢ – ٤٤.

(٣) ينظر: الصبغ البديعى للدكتور/ أحمد موسى، دار الكاتب العربى، ١٣٨٨هـ، صـ٤٩٧، دراسات منهجية فى علم البديع للدكتور/ الشحات أبو ستيت، ط/ الأولى، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، صـ١١٠.

أهم المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة، للشيخ / عبد القاهر الجرجانى ت/ محمود شاكر، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م، دار المدنى، جدة.
- إعجاز القرآن الكريم فى وصف حركة الظلال، بحث ألقاه الدكتور/ يحيى وزيرى فى المؤتمر العالمى الثامن للإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة بالكويت، وطبعته الهيئة العالمية للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة.
- إملاء ما منَّ به الرحمن لأبى البقاء العكبرى، ت/ إبراهيم عطوه عوض، المكتبة العلمية، لاهور، باكستان.
- الإيضاح بتعليق عبد المتعال الصعيدى، مكتبة الآداب بالقاهرة.
- البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق/ صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت.
- التبصرة والتذكرة للصيمرى ت/ د. فتحى أحمد مصطفى، مركز البحث العلمى، جامعة أم القرى.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الطبعة: الأولى،١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
- التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب، الطبعة الخامسة عشرة ١٤٢٢هـ، دار الشروق، القاهرة.
- تفسير ابن كثير، ت/ سامى بن محمد سلامة، ط/ الثانية، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م دار طيبة للنشر والتوزيع.
- تفسير البغوى، ت/ محمد عبد الله النمر وآخرين، ط/ الرابعة، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م دار طيبة للنشر والتوزيع.
- تفسير البيضاوى، دار الفكر، بيروت.
- تفسير السراج المنير لمحمد بن أحمد الشربيني دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- تفسير اللباب لابن عادل، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق/ أحمد فريد، الطبعة: الأولى١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، لبنان.
- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠م.

- تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى، دار الأضواء، بيروت.
- تهذيب اللغة لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهري، ت/ محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- جامع البيان لابن جرير الطبرى، ت/ أحمد شاكر، ط/ الأولى١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الجامع الصغير فى النحو لابن هشام، ت/ أحمد محمود المرميل، مكتبة الخانجى، القاهرة.
- الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى، ت/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة/ الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، دار الكتب المصرية ، القاهرة.
- جريدة الأهرام، العدد الصادر فى ٣٠ / ٦ / ٢٠٠٤م.
- الجنى الدانى فى حرف المعانى للمرادى، ت/ د. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- حاشية الدسوقى على شرح السعد (ضمن شروح التلخيص)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، دار صادر، بيروت.
- حروف المعانى للزجاجى، ت/ د. على توفيق الحَمَد، ط/ الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغدادي، ت/ محمد نبيل طريفي ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- خصائص التراكيب للدكتور/ محمد أبى موسى، ط/ الثانية، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، مكتبة وهبه، القاهرة.
- خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية: د/ عبد العظيم المطعنى، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
- دراسات منهجية فى علم البديع للدكتور/ الشحات أبو ستيت، ط/ الأولى، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت / مركز هجر للبحوث، دار هجر، مصر١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى، ت/ محمود شاكر، مكتبة الخانجى بالقاهرة.

- دلالات التراكيب للدكتور/ محمد أبي موسى، ط/ الثانية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، مكتبة وهبه، القاهرة.
- ديوان كثير عزة شرح/ قدرى مايو، الطبعة الأولى١٤١٦هـ ١٩٩٥م، دار الجيل، بيروت.
- ديوان المتنبى، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
- ديوان النابغة الجعدى ت/ د. واضح الصمد، الطبعة الأولى١٩٩٨م، دار صادر، بيروت.
- رصف المبانى فى شرح حروف المعانى لأحمد بن عبد النور المالقى، ت/ أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي، تحقيق/ على عبد البارى عطية دار الكتب العلمية ـ بيروت١٤١٥هـ.
- الزاهر فى معانى كلام الناس لابن الأنبارى، ت/ د. حاتم الضامن، ط/ أولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون، لبرهان الدين الحلبى، دار المعرفة، بيروت.
- شرح التسهيل لابن مالك، دار هجر، القاهرة.
- شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك، عالم الكتب، بيروت.
- الصبغ البديعى لأحمد موسى، دار الكاتب العربى.
- صحيح البخارى، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، دار الشعب بالقاهرة.
- عروس الأفراح لبهاء الدين السبكى (ضمن شروح التلخيص)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- غريب القرآن لابن قتيبة، ت/ أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية لمحمد بن على الشوكانى، طبعة دار المعرفة.
- فى ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة.
- القاموس المحيط للفيروابادى،الطبعة الأولى١٤١٢هـ ١٩٩١م، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
- قصيدة المتنبى الرفق بالجانى عتاب رؤية بلاغية نقدية للباحث، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا.
- الكشاف للزمخشرى، ط/ مصطفى الحلبى، القاهرة.
- لسان العرب لابن منظور، ت/ عبد الله على الكبير، طبعة دار المعارف بالقاهرة.

- مجلة الإعجاز العلمي، الصادرة عن هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بجدة، العدد رقم ١١، لسنة١٤٢٢هـ.
- المحرر الوجيز لابن عطية، المجلس العلمي بفاس، المغرب.
- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، ت/د. عبد الحميدهنداوي،دارالكتب العلمية،بيروت، ٢٠٠٠م.
- مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح، (ضمن شروح التلخيص) دار الكتب العلمية، بيروت.
- المطول لسعد الدين التفتازاني، ط/ أحمد كامل، ١٣٣٠هـ اسطنبول.
- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي، وآخرين، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
- معاني القرآن للأخفش، ت/ د. فائز فارس، ط/ أولى ١٤٠٠هـ، بدون ناشر.
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي، ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٣٦٧هـ ١٩٤٧م، عالم الكتب، بيروت.
- معجم البلاغةالعربية للدكتور/أحمدمطلوب،مطبوعات المجمع العلمي العراقي،١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
- معجم البلاغة العربية للدكتور/ بدوي طبانة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، دار المنار، جدة.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة بالقاهرة.
- مغني اللبيب لابن هشام، ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة.
- مفاتيح الغيب للإمام محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت/ محمد سيد كيلاني، ط/ الأخيرة، ١٣٨١هـ ١٩٦١م مطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة.
- مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي، (ضمن شروح التلخيص) دار الكتب العلمية، بيروت.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي، ت: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
- همع الهوامع للسيوطي، ت/ عبد السلام هارون، دار البحوث العلمية، الكويت.